44

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة العاشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٤

دنيانا الخضراء

كم مرةً إلى جهنّم تحوَّلتْ دنيانا،
وكم مرةً جِنانًا خضرًا عادتْ..
أعظم آمالنا، جنةً خضراء نعيدها،
رغم يبس الرياض وإذواء البساتين..

* * *

٢ سمات المؤمن الحق
فتح الله كولن

١٥ ضرورة العودة إلى القرآن الكريم
أ.د. الشاهد البوشيخي

٣٠ الأفق التربوي في بناء الإنسان
د. كريمة بوعمري

إيجابية المؤمن

إن "المؤمن" في كل ما كتبه "فتح الله كولن" وما يكتبه اليوم، وكما يشخص سماته ويرسم ملامحه، ليس بالمؤمن السلبي والانكفائي والاعتزالي الذي يرى العالم يحترق، بينما يظل هو في مكانه يتفرّج على شبوب نيرانه وعلوّ لهبه من بعيد، وأن الأمر كله لا يعنيه بشيء، بل هو اقتحامي بكل معاني هذه الكلمة. يقتحم النيران، ويَشُقُّ ألسنة اللهب حتى لو أدَّى ذلك إلى احتراقه هو نفسه لكي ينقذ ما يمكن إنقاذه من هذا العالم الذي تتآكله من كل مكان ألسنة اللهب، مُتَدَرِّعًا بعظمة روحه، ومستنيرًا من الدخان بإشراف قلبه وعمق إيمانه وثقته بالمعية الإلهية والعناية الربانية.

إنه ممتلئ بالمعرفة والعرفان، والشفقة والإشفاق، والرحمة والحنان... ذو هيئة شمّاء، وهيبة وسناء، أخ للإنسان يمشي على الأرض هونًا... جبهته لصيقة التراب، وعيونه معلقة بالسماء... متواضع لا عن ضعف ومسكنة، هينٌ لا عن خوف، سهل لا عن انسحاق... قلبه من خشية ربه بارتجاف، وعينه بالدمع تطفح، ولسانه بالرحيق يُقطِّر... لا يرى نفسه شيئًا، ويرى كل شيء أفضل منه، وأقرب إلى الله منه... قوي في تواضعه، عميق في فكره، صموت في تفكره... إنه نجمٌ العالمُ به يهتدي، والزمان به يبتدي، قوله فصل، وحكمه ميزان، وللعالَم عقل وجنان، وللروح رِيٌّ واخضرار... طليق من أسار الأزمنة، هارب من قمقم الأمكنة... لا زمان يحده ولا مكان يحجزه، جوَّالُ آفاق، لا يسأم من الأسفار ولا يسقم من طول الاغتراب... صاحب رسالة، ورجل دعوة، وحامل راية، يموت لتظل خفَّاقة... إنه لغير الله لا ينحني، لآلام البشرية يبكي، وعليها ينحب ويحزن، ويئن ويألم، "يحملون قلبًا وخُلقًا نبويًّا عندما يتعاملون مع الناس، يحبّون الجميع، ويحتضنون كل شيء، يتعامَون عن رؤية أخطاء الآخرين، بينما يحاسبون أنفسهم على أتفة الأخطاء... يحبهم الله ويحبونه، ينفعلون دومًا بمشاعر الحب، ويعيشون نشوة هذه المشاعر..." كما وصف "كولن" المؤمنين المرجوين في مقاله الافتتاحي من "حراء". و"كولن" عندما يرتقي بالمؤمن هذا الارتقاء، ويبعثه هذا الانبعاث إنما يفعل ذلك لكي يرسم للجيل الحاضر والأجيال الآتية من المؤمنين، الأفقَ الأعلى الذي يجب أن يكون مطمح أنظارهم، وموئل أفكارهم ومقصد غاياتهم. فأمثال هذا الجيل بصفاته هذه، وملامحه تلك، هو المرشح لقيادة الروح الإنساني من جديد، وانتشاله من وهدته وتصحيح مساراته.

المحتويات

سمات المؤمن الحق / فتح الله كولن (المقال الرئيس) ٢

البصمة الوراثية / د. محمود نجا (علوم) ٦

براءة الإسلام من العنف والإرهاب / د. إسحاق السعدي (قضايا فكرية) ١١

ضرورة العودة إلى القرآن الكريم / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية) ١٥

قطرات الماء / حراء (ألوان وظلال) ١٩

إما وإما / أديب إبراهيم الدباغ (أدب) ٢٠

البوم.. ملك الليالي / أ.د. عرفان يلماز (علوم) ٢١

حماية البيئة.. عقيدة وسلوكٌ / د. عبد الكريم عكيوي (ثقافة وفن) ٢٥

مخاطر الطريق / حراء (ألوان وظلال) ٢٩

الأفق التربوي في بناء الإنسان عند الأستاذ فتح الله كولن / د. كريمة بوعمري (تربية) ٣٠

التوازن الفكري / د. محمد بن إبراهيم السعيدي (قضايا فكرية) ٣٤

مقاصد الشريعة بمذاق الفنون الجميلة / أ.د. إبراهيم البيومي غانم (قضايا فكرية) ٣٨

الحريّة الشرعية في أزاهير النور / د. محمد البشير الهاشمي مغلي (قضايا فكرية) ٤٤

يا إنسان! / حراء (ألوان وظلال) ٤٨

عبد اللطيف البغدادي / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة) ٤٩

الطيور المهاجرة / د. ناصر أحمد سنه (علوم) ٥٣

مواقع التواصل الاجتماعي والواقع / د. يحيي جاد (قضايا فكرية) ٥٦

السراج المنير / د. ناصر الزهراني (شعر) ٥٨

الخَواء الفكري وخطورته على الشباب / د. حسن عبد الله حمد النيل (قضايا فكرية) ٦٠

فتح الله كولن

سمات المؤمن الحق

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم "رجال مثاليّون" مؤهَّلون للقيام بدور "الدليل الأسوة" أمام المجتمع وأمام "أجيال المسؤولية" الذين بلغوا الحد الأقصى من التأهّب للقيام بالواجب الذي تحمّلوه أمام الله سبحانه وتعالى.

نعم، الحاجة ماسة إلى "مرشدين مثاليين" يهبّون لإنقاذ البشرية من مستنقعات الجهل والإلحاد والضلال والفوضى التي تتخبط فيها منذ عصور، ويسيرون بها نحو شواطئ الإيمان والعرفان والاستقامة والاطمئنان.

أجل، إن ابن آدم بفضل تلك "العقول الفذة" التي

ظهرت إبان المحن والأزمات، تحمل مصابيح الهدى لتضيئ الدرب للحشود المتخبطة في ظلمات شتى دينية وفكرية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية، والتي أعادت قراءة الكون والإنسان والوجود بل وما وراء الوجود، وعملت على حلّ عقدنا الفكرية والعاطفية، وأزالت السدود التي تعيق أفكارنا من الانطلاق ومشاعرنا من الجيشان... أجل، بفضل هؤلاء الأفذاذ استطاع ابن آدم أن يجعل من كفن الموت قميص حياة خمسين مرة، ويعيد تفسير الأشياء والحوادث من جديد مائة مرة، ويتلو كتاب الكون -هذا الكتاب الذي انطفأ بريقه وبهت لونه واصطبغ بصبغة العبثية في نظر العقول السطحية- على امتداده الشاسع بعد الإحساس بأعماقه اللانهائية تلاوة تطرب لها النفس كأنها الموسيقى سحرًا وجمالاً... وأن يطالع هذا الكتاب بنشوة عظمى كمن يطالع معرضًا بديعًا باهرًا... وأن يُقبِل على الأشياء فيحللها فصلاً فصلاً وفقرة فقرة ليكتشف الحقائق الكامنة في روح الكون المديد.

إن أعظم سمتين أُكرِم بهما هؤلاء "السعداء" الأطهار؛ إيمانهم النقي، ثم ما يبذلونه من جهود جبارة ليطلعوا العالمين على حلاوة ما ذاقوه من إيمان. إنهم على يقين بأنهم يستطيعون -بفضل هذا الإيمان وتلك الجهود- تخطي جميع العقبات، والوصول إلى الله وإلى الطمأنينة الحقة، وتحويل دار الدنيا إلى جنات، وإقامة قصورهم في الحياة الأخرى على سفوح جنان الفردوس. ومن ثم فهم يشعرون بالحياة والخدمة الإيمانية فيها -في ضوء الخاتمة المنشودة- كأنها جولة ممتعة في ربوع الجنة.

ولا شك أنه لا يوجد نظام ولا فكرة أو فلسفة استطاعت أن تُحدث أثرًا إيجابيًّا في عمق الإنسان كالذي يحدثه الإيمان مهما تفاوتت نسبته في ذات المؤمن. ففور دخول الإيمان -بمعناه الحقيقي- في قلب إنسان، تتغير رؤيته فجأة عن الكون والأشياء والخالق، وتزداد تلك الرؤية عمقًا واتساعًا حتى يتمكن من تقليب صفحات الوجود وتقييمها وكأنها صفحات كتاب. ليس هذا فحسب، بل وتنبض الكائنات من حوله بالحياة فجأة -تلك التي لم يكن يعيرها التفاتًا في السابق أو كان

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم "رجال مثاليّون" مؤهَّلون للقيام بدور "الدليل الأسوة" أمام المجتمع وأمام "أجيال المسؤولية" الذين بلغوا الحد الأقصى من التأهّب للقيام بالواجب الذي تحمّلوه أمام الله سبحانه وتعالى.

يعتبرها بلا روح أو معنى- وتبتسم إليه ابتسامة الصديق الحميم، وتحتضنه بدفئ ورفق وحنان. وفي مثل هذا الجو الدافئ الحنون يبدأ شعور الإنسان بقيمته الحقيقية، ويعي أنه الجزء المدرِك الفريد في هذا الوجود، ويعرف سر الدروب المنسابة في انحناء والتواء في ثنايا صفحات الكون وسطوره، ويحس وكأنه بدأ يحدس الأسرار الكامنة وراء أستار الوجود، فإذا به ينجو من سجن الأبعاد الثلاثة للمكان ويرفرف في فضاءات اللانهاية.

أجل، كل إنسان آمن حقًّا، ينتقل -وهو المحدود- إلى اللامحدود بفضل التأملات التي تمور في أعماق ذاته مورًا. وبينما هو مقيد بالزمان والمكان إذا به يتحول إلى نسر فوق الزمان والمكان، ويرتقي إلى مصافّ الكائنات المتسامية على المكان، ويسمع أنغام الملائكة وتراتيلهم.

إن هذا الكائن الذي كانت بدايته من ماء مَهين، ومن طين لازب... الصغير في ظاهره، الكبير في حقيقته... يتسع وينمو بقدر ما تتهيؤ الأجواء المناسبة لتفتّح النفخة الإلهية الكامنة في جوهره، فيغدو كائنًا متساميًا لا تسعه الأرض ولا تحده السماء... كائنًا يبدو جِرمًا صغيرًا ولكن فيه انطوى العالم الأكبر. فهو يتجول بيننا... يجلس ويقوم معنا... يطأ بقدميه التراب الذي نسير عليه، وحينما يسجد يضع جبهته على الأرض التي نضع عليها جباهنا... ولكنه يوظّف السجود -حيث جمع الرأسَ والقدمين في نقطة واحدة وغدا حلقة مكورة- كمنصة انطلاق في طريق "القرب"، فيبلغ أفق "الأقربية" من الله في قفزة واحدة، ويبسط جناحيه ليحلق مع الأرواح الطيبة عاليًا في السماوات التي يحلقون فيها، ويعيش كالأخرويين رغم أنه لا يزال دنيويًّا.

إن قلبًا هذا شأنه -بحسب نمو مشاعره الإنسانية

hiramagazine.com

وتفتقها- يتجاوز "فرديته" دائمًا، ويغدو "كليًّا"، فيحتضن الناس جميعًا، ويمد يده للجميع، ويرسل البسمات والتحايا إلى الوجود كله بأخلص المشاعر وأنقاها. يستخلص من كل شيء رآه ومن كل إنسان التقاه ألوانًا جميلة ونقوشًا بديعة من التجليات الإلهية ويصغي إلى ترنيماتها الساحرة، وينغمر في مراقبة جذلى جديدة مع كل تسبيحٍ من السماوات منبعثٍ من تردد جديد وذبذبة أخرى، يحس وكأنه يسمع رفرفة أجنحة الملائكة.

إنه يسمع ويشاهد معارض للجمال واسعةً ممتدة تشمل كل شيء... بدءًا من جلجلات الرعد المرعبة الخالعة للقلوب، إلى نغمات العصافير الشادية الباعثة على السكينة والارتياح... ومن أمواج البحار الهائلة المتلاطمة، إلى خرير الجداول الهامسة بمعاني الخلود... ومن الطنين الساحر المنبعث من الغابات الهادئة، إلى المنظر المهيب لذرى الجبال الشوامخ المتطاولة نحو السماء... ومن النسمات السحرية التي تداعب التلال الخضراء ليل نهار، إلى العطور النّشوَى التي تفوح من البساتين والحدائق لتغمر كل مكان. نعم، يشاهد معارض الجمال هذه ويسمع أصداءها ويحس بها فيقول لنفسه "إذن هذه هي الحياة الحقيقة". يقول ذلك، ثم يهتف مع جميع الكائنات ومع معانيها الشبيهة بالروح معزِّزًا أنفاسه بالأدعية والتسابيح ليوصلها إلى قيمتها الحقيقية.

جبهته على الأرض في سجود دائم، ونظره معلَّق على فُرْجة الباب الذي قضى حياته آملاً أن يُفتَح له يومًا ويحظى بنظرة رضى وقبول... يُغمِض عينيه ويفتحهما على هذا الأمل... يتلمّس ما يدور خلف الباب بتوق وشوق عظيمين... ينتظر الساعة المباركة التي تزول فيها الغَيْبة والغربة وتُشرق فيها القُربة سكينةً وطمأنينةً تغمر أرجاء روحه... ينقّب عن جواب أو صدى لنداءات الشوق ومطالب الوصال المترددة في روحه.

تجده وقد شرع أجنحته وحلق مثل الطائر حينًا، وحط على الأرض وسار ماشيًا حينًا آخر؛ ومهما يكن، فهو ميمّم وجهه نحوه -سبحانه- يهرول إليه دون توقف وقد ضم كلَّ أحد إلى صدره واحتضن كل شيء بمحبة غامرة. في كل منزل يحط رحاله فيه، يشعر بظلالٍ جديدةٍ للوصال تظلله فيعيش بهجة "ليلة عُرْس" سعيدة[1]. وفي كل منحنى يطفئ نار شوق، ويلتهب في الوقت نفسه بنار شوق أخرى، فيبدأ بالاحتراق من جديد. ومن يدري كم من مرة في اليوم يجد نفسه مغمورًا بنسمات الأنس، وكم من مرة يحزن ويتألم للوحشة والوحدة التي يعاني منها البؤساء الذين حُرِموا من الإحساس بهذه المواهب السنية والإشراقات البهية.

أجل، فمثل هذا الروح البالغ هذا المدى من رحابة الأفق يجد نفسه مستقرًّا على منصات انطلاق نحو عوالم جديدة على الدوام، متحفزًا أشد ما يكون التحفز، مشحونًا بعزم يفوق مقاييس الإنسان العادي... وكذلك يفكر في ألوان المنن التي سينالها، وأنواع النجاحات التي سيحرزها بفضل إيمانه والقوة الكامنة وراء ذلك الإيمان. وبما أن أفقه واضح، وطريقه مفتوح، وإرادته حرة، وقلبه في طمأنينة وسكينة، فهو يجري دومًا دون شعور بأي تعب أو إرهاق. وكلما قطع منزلاً وحط رحاله في منزل آخر يزداد رصدًا وإنصاتًا لأعماق ذاته، كما تزداد محبته عمقًا لكل ما حوله ومن حوله.

عندما ينصت إلى روحه يجد نفسه في واحة من السكينة والطمأنينة لا تنتهي. وبينما يعاني العديد من الناس من غربة قاسية ووحدة كئيبة بدوافع شتى، تراه بعيدًا كل البعد عن وحشة الطريق وغربته... فهو يدري من أين جاء، ولماذا جاء، وإلى أين يصير؟ هو على وعي بكل ما يدور في دار الدنيا من تجمّع وتفرّق، وعلى دراية بأنه يجري في درب واضح الغاية بيّن الهدف؛ لا يشعر بمشقة الطريق أبدًا، ولا تصيبه المخاوف ولا الهواجس ولا الاضطرابات التي تهز الآخرين هزًّا. واثق بالله، متحفّز بالأمل، مرتشف متعةَ الوصول إلى الذروة التي تزيّنها أحلام زرقاء ناصعة للمستقبل السعيد.

أجل، ستجد أبطال هذا الإيمان الشامخ مواظبين -بحسب عمق إيمانهم- على السير في الطريق وقطع المسافات مطمئنين سعداء كأنهم يتنزهون في سفوح الجنان، في الوقت الذي يتعثر فيه الناس في سيرهم ويضطربون. هذا من جانب، ومن جانب آخر ستجدهم -بفضل ارتباطهم بالحق تعالى- قادرين على تحدي

hiramagazine.com

العالم أجمع، والاضطلاع بكل مهمة، وتخطّي كل حاجز. فلو قامت القيامات كلها لا يضطربون، ولو واجهتهم نيران جهنم واحدة تلو الأخرى لا يمسهم الخوف ولا يتراجعون. هاماتهم مرتفعة في عزة وإباء دومًا، لا يحنونها لأحد إلا لله. فهم لا يخشون أحدًا، ولا ينتظرون جزاء ولا أجرًا من أحد، ولا يقعون تحت منة أحد.

وعندما يحرزون الفوز ويتنقلون من نصر إلى آخر تعتريهم مخاوف، وتحيط بهم هواجس خشية أن يكون النصر ابتلاء لهم من عند الله، وتنحني ظهورهم شكرًا لله على هذه النعمة العظمى، وتفيض أعينهم بالدمع فرحًا وسرورًا... وإذا ألمّتْ بهم خسارة أو تعرّضوا لنكسة يعرفون كيف يصبرون، وكيف يشحنون عزائمهم، ويشحذون إرادتهم، ويهتفون "لنبدأ من جديد" منطلقين إلى الأمام. أولئك لا تطغيهم النعمة وليسوا من الجاحدين، وعندما يصيبهم الفقر والعوز لا ييأسون.

إنهم يحملون قلبًا وخُلُقًا نبويًّا في تعاملهم مع الناس... يحبون الجميع، ويحتضنون كل شيء... يتعامون عن رؤية أخطاء الآخرين، بينما يحاسبون أنفسهم على أتفه العثرات... لا يصفحون عن الأخطاء في الحالات الاعتيادية فحسب، بل حتى في حالات الغضب كذلك، يعرفون كيف يسايرون ويتعاملون مع أخشن الطبائع وأكثرها فظاظة. فالإسلام أمر أتباعه بالعفو والصفح، والبعد عن الحقد، وعدم الانهزام أمام مشاعر العداء والكراهية والانتقام. وكيف لنا أن نتوقع سلوكًا آخر غير هذا السلوك السامي من أبطال يدركون في قرارة نفوسهم دومًا أنهم سائرون إلى الله!

أجل، إنهم يبحثون دومًا عن سبل إسداء خير للآخرين، ويرجون لهم الحسنى، ويلحّون على إبقاء شعلة الحب متقدة في قلوبهم حية في نفوسهم، ويشنون حربًا شعواء لا نهاية لها ضد مشاعر الغيظ والنفور.

هؤلاء الأبطال يحرقون أخطاءهم وذنوبهم بنار الندم، ويشتبكون في صراع شرس مع نوازع الشر المبثوثة في طبائعهم كل يوم عدة مرات. يبدؤون العمل من أنفسهم، ويمهّدون البيئة الصالحة لغرس فسائل الخير والجمال

كل إنسان آمن حقًّا، ينتقل -وهو المحدود- إلى اللامحدود بفضل التأملات التي تمور في أعماق ذاته مورًا. وبينما هو مقيد بالزمان والمكان إذا به يتحول إلى نسر فوق الزمان والمكان، ويرتقي إلى مصافّ الكائنات المتسامية على المكان، ويسمع أنغام الملائكة وتراتيلهم.

وتنميتها في كل مكان. وهم -كذلك- واقتداءً بفلسفة "رابعة العدوية" يَعُدّون كل شيء وكل أحد عسلاً مصفّى وإن كان سمًّا زُعافًا، ويقابلون من يأتيهم حاقدًا ناقمًا بالبسمات، ويصدون أشد الجيوش عداوة بسلاح الحب الذي لا يُهزَم أبدًا.

إن هؤلاء يحبهم الله، وهم يحبونه كذلك. وعندما يحبونه تجيش قلوبهم بفيض هذه المحبة... وساعة يشعرون بأنهم محبوبون لديه يغرقون في حال من الذوبان والانتشاء لا يمكن وصفها. التواضع ديدنهم، فهم يخفضون أجنحتهم حتى الأرض، ويرجون أن لو كانوا ترابًا تنبت فيه الورود. وبقدر احترامهم للآخرين فإنهم حريصون -كذلك- على كرامتهم وعزتهم؛ لا يسمحون أبدًا أن تفسَّر سماحتهم ورقّتهم وحِلمهم ونبلُ أخلاقهم ضعفًا أومسكنة. بل لو استوجب الأمر لما ترددوا لحظة واحدة في الافتداء بحياتهم والسير نحو ديار الآخرة. لا يغريهم مدح مادح أو يثنيهم قدح قادح ما داموا يعيشون عقيدتهم ويَحيون بإيمانهم. ما يهمهم فقط ألا تبهت نضرة الإيمان وبهاؤه في قلوبهم، لأنهم عقدوا العزم على أن يكونوا مؤمنين حقًّا. ■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة. نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية في العدد: ٢٤٤، سنة ١٩٩٩.

الهوامش

(١) شبِ عروس: عبارة فارسية تعني ليلة العرس، وقد استخدمها جلال الدين الرومي ليعبر بها عن فرحة الوصال بالموت وتسليم الروح إلى الله تعالى، فالموت عرس في أدبيات الرومي، عرس يلتقي فيه الإنسان الفاني بمحبوبه الباقي، فليلة العرس ساعة الوصال..

علوم

د. محمود نجا*

البصمة الوراثية

١

البصمة الوراثية هي الحمض النووي (DNA) أو المادة الوراثية الموجودة في نواة جميع خلايا الكائنات الحية، وهي التي تجعلني وتجعلك مختلفًا عن الآخر، لأنها تعطي جسدي وجسدك صفاته الوراثية الخاصة به كاللون أو الطول، وكأن الله ﷻ قد جعل للكائن الحي تمثالاً أو صورة متناهية في الصغر بداخل نواة الخلية.

ولم يُعرف الحمض النووي كبصمة وراثية مميزة لكل فرد إلا عام ١٩٨٤ حينما نشر الدكتور "آليك جيفريز" -عالم الوراثة بجامعة "ليستر" بلندن- بحثًا أوضح فيه أن المادة الوراثية قد تتكرر عدة مرات، وتعيد نفسها في تتابعات عشوائية غير مفهومة، ثم اتضح له أن هذه التتابعات مميِّزة لكل فرد، وأطلق على هذه التتابعات اسم "البصمة الوراثية للإنسان"، وعرفت على أنها "وسيلة من وسائل التعرف على الشخص عن طريق مقارنة مقاطع الحمض النووي. ولاحقًا قام الدكتور "آليك" أيضًا بدراسة على إحدى العائلات يختبر فيها توريث هذه البصمة، وتبين له أن الأبناء يحملون خطوطًا مميزة يجيء نصفها من الأم (٢٣ كروموسوم)، والنصف الآخر من الأب (٢٣ كروموسوم)، وهي مع بساطتها تختلف من شخص لآخر. وتبين أنه يمكن فصل كروموسومات الأم عن الأب بحيث يمكن استخدام كروموسومات الأب في اختبارات النسب (إثبات أو نفي البنوة)، وذلك بمقارنة كروموسومات الأب المفصولة من خلايا الابن بكروموسومات أي رجل لمعرفة ما إذا كان أبوه أم لا. وكذا يمكن مقارنة كروموسومات الأم المفصولة من خلايا الابن بكروموسومات أي امرأة لمعرفة ما إذا كانت أمه أم لا.

في زمن لم يكن فيه للعلم التجريبي وجود يُذكر أو آلة تُعرف، ولم يكن بمقدور أي أحد معرفة كيف تُخلق الأجنة في بطون الأمهات، أو كيف تنتقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر الحمض النووي (البصمة الوراثية) للنطفة الأمشاج، بيّن لنا ﷺ كيف نستخدم أبرز الصفات الشكلية للجنين في التعرف على أبيه الحقيقي الذي جاءت منه النطفة، وذلك من خلال علم القيافة؛ فقال ﷺ في قصة هلال بن أمية الذي اتهم امرأته بالزنى مع شريك بن سحماء، ولم يكن له أربعة شهداء، وبعد أن تم اللعان والتفريق بين هلال وامرأته قال ﷺ: "أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبِطًا قَضِيءَ الْعَيْنَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ جَعْدًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ. قال: فَأُنْبِئْتُ أنها جاءتْ به أَكْحَلَ جَعْدًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ" (رواه مسلم). فأمر ﷺ بإجراء القيافة لإثبات صدق هلال أمام المجتمع بأثره، حيث إن الملاعن قد يكون صادقًا أو كاذبًا، ولا يعلم الحق إلا الله الذي لا تخدعه الأيمان ولا تختلط عنده الأنساب. وما استطاع النبي ﷺ أن يحدد أبو الغلام بدقة شديدة وهو في بطن أمه، إلا لكونه من وحي الله الذي علّمه أسس علم الوراثة -كما نعرفها في زماننا- فربط ﷺ القيافة بالفراش وبالبصمة الوراثية، على أساس أن نصف الصفات الشكلية للولد تأتي من نطفة الرجل الذي جامع في الفراش.

فأخبرنا ﷺ عن الفرق بين الصفة الموروثة والصفة المكتسبة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾(النحل:٧٨)؛ فالعلم مكتسب والسمع والبصر موروثان من النطفة الأمشاج، ولذا قال ﷺ: "إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها" (رواه مسلم)، مبيّنًا أن هناك تصويرًا من النطفة قبل خلق الأعضاء وهو ما أسماه العلم الحديث "نَسْخ الحامض النووي" الموجود في النطفة وترجمته إلى بروتينات الأعضاء.

كما بيّن ﷺ أن الصفات الموروثة تأتي من كلا الأبوين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(الإنسان:٢)، وبيّن أيضًا أن الصفات الوراثية للولد قد تميل إلى نطفة الأب أو نطفة الأم أو كليهما، ولهذا أخذ النبي ﷺ بالشبه وبيّن سببه، فقال لليهودي الذي جاء يسأله عن الولد كيف يشبه أباه أو أمه: "وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع إليها" (رواه البخاري)، بل إنه ﷺ قد

بيّن لنا أن الصفات الوراثية منها السائد والمتنحي، وأن الصفة السائدة هي التي تستخدم في القيافة، أما المتنحية فلا تستخدم، فقال للأعرابي الذي جاء يشتكي لون ابنه: "فلعل ابنك هذا نزعه عرق" (متفق عليه)، فبيّن أن الصفة الوراثية قد تأتي من الأجداد وليس من الآباء فقط.

وكما أوحى الله ﷻ إلى النبي ﷺ بكيفية التعرف على صاحب الفراش باستخدام القيافة (علم مقارنة الصفات الشكلية)، فقد أوحى إليه أيضًا بما سوف يكون في آخر الزمان من استخدام الناس للبصمة الوراثية (علم مقارنة الصفات الجينية)، فالحمض النووي كبصمة يدل على صاحبه، ويدل على أبويه، ولا عجب في هذا الإخبار، لأن الذي أوحى بالقرآن والسنة إلى نبي هذه الأمة هو الله العليم الخبير.

القرآن والسنة لهما السبق في وصف انتقال الصفات الوراثية عبر الحمض النووي للأمشاج.

إذا أردنا البحث عن الحمض النووي في القرآن والسنة، فينبغي البحث عن صفته الثابتة التي استقر عليها العلم، وهي أنه يعمل كفيلم أو قالب قابل للاستنساخ (التصوير)، ويحمل شفرة وراثية تمثل صورة أو تمثالاً مشابهًا للكائن الحي.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾(المؤمنون:١٢-١٣)، ونلاحظ أن الهاء في ﴿جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ عائدة على الإنسان بكل صفاته، وفي هذا الإخبار الرباني عن جعل الإنسان نطفة، إعجاز علمي غاية في الدقة؛ إذ كيف تتساوى النطفة التي تمثل خلية واحدة لا تُرى بالعين المجردة مع الإنسان الذي يتركب من بلايين الخلايا، فكأنك تقول "فيل ويلتف في منديل". وهذا الإعجاز لم يعرفه العلم إلا منذ فترة بسيطة عندما فحص النطفة ليكتشف وجود الإنسان الجيني (Genetic human) أو الحمض النووي "دنا" (DNA) أو البصمة الوراثية، لا يكاد يذكر في الحجم ولكنه يحمل شفرة وراثية كاملة للإنسان أو الصورة المشابهة للإنسان. والآيات السابقة ترسم لنا الخطوط العريضة لكيفية انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة، فالخلايا الجنسية لآدم وحواء ﷺ تحولت إلى النطفة، ومن النطفة خلق الله ﷻ الذُّرية في الأرحام. (صورة ١)

الإنسان الأول (آدم)		نطفة		الإنسان الذرية
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ	نسخ ← تصوير	ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً	نسخ ← تصوير	إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

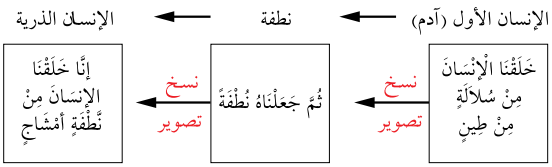

(صورة ١: توريث الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة)

والعلم الحديث حين فسّر لنا كيف تنتقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، قال بأنه يحدث نسخٌ للحمض النووي في الخلايا الجنسية لتتكون الأمشاج التي تتحد في الأرحام لتعطي النطفة الأمشاج، ثم يحدث نسخٌ للحمض النووي في النطفة الأمشاج لتتكون منه أعضاء الجنين في مصانع البروتينات المعروفة بـ"الريبوسومات".

أما في القرآن والسنة فنجد كلمة أدق وهي "التصوير"، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(آل عمران:٦)، وإذا سألنا النبيَّ عن معنى التصوير في الآية فيقول: "إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها"، فبيّن أن هناك تصويرًا من النطفة قبل خلق أعضاء الجسم، وهو ما أسماه العلم "نسخ الحمض النووي" وترجمته إلى بروتينات الأعضاء. وهذا يؤكد أن كلمة التصوير هي المستخدمة في القرآن والسنة لوصف

hiramagazine.com

انتقال الصفات الوراثية عبر الأمشاج. وباستخدام كلمتي الخلق والتصوير، بيّن لنا رب العزة في القرآن الأسسَ العلمية للبصمة الوراثية، وهذه الأسسُ العلمية بترتيب آيات التصوير في المصحف كالآتي:

١- الحمض النووي يعتبر صورة مطابقة للجسد (بصمة الجسد البشري)، وينتقل من الآباء إلى الأبناء عبر الأمشاج، وبالتالي فكل أفراد الجنس البشري يملكون الحمض النووي البشري، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾(الأعراف:١١)، فبعد أن خلق الله ﷻ جسد آدم عليه السلام خلقًا كاملاً (الصفة الشكلية) صار آدم هو الأصل الذي يتم أخذ صورة له، وهذه الصورة المطابقة لجسد آدم عليه السلام هي الحمض النووي الموجود بداخل خلاياه (الصفة الجينية).

فلا يصح خلقنا إلا بخلق آدم عليه السلام، لأننا خُلقنا كخلايا جنسية في صلب آدم ولا يصح تصويرنا إلا بتصوير آدم، لأن الله صوّر آدم على الحمض النووي الخاص به في الخلايا الجسدية والجنسية، ثم صوّرنا من الحمض النووي للخلايا الجنسية، وكل ذلك قبل سجود الملائكة لآدم.

٢- يمكن فصل الحمض النووي من أي خلية، واستخدامه كصورة حسنة تدل على أصلها (صاحب الصورة)، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(غافر:٦٤)؛ فالحمض النووي يطلق عليه صورة حسنة لأنها تطابق صاحبها وتدل عليه، فالصورة مساوية للخلقة: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فجاءت الصورة حسنة أي دالة على الخلقة، فمن حسن الصورة أن تدل على صاحبها.

٣- لكل نوع من الكائنات الحية بصمة وراثية مميّزة له عن سائر الكائنات الحية، فالإنسان غيرُ الحيوان، غير النبات، غير الكائنات الدقيقة، وبالتالي يمكن التعرف على هوية أي خلية (بصمة النوع)، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الحشر:٢٤)؛ فمع أن الحمض النووي يتركب من عدة مركبات كيميائية ثابتة في كل الكائنات الحية، إلا أن لها "ترتيبًا" معيّنًا يختلف من كائن إلى آخر، بحيث لا نجد كائنين لهما

نفس الحمض النووي، ولذا يطلق على الله "المصور"، أيْ "الذي صَوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة يتميز بها على كثرتها".

٤- لا يمكن أن يتشابه الحمض النووي لفردين من نفس الجنس البشري (البصمة الوراثية لكل فرد من أفراد النوع الواحد)، قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(التغابن:٢-٣)؛ وأحد معاني ﴿أَحْسَنَ﴾ هو "حَسَّن" بتشديد السين بمعنى التحسين، وعليه فالآية تصف التصوير الوراثي المسؤول عن تحسين صور الذُّرية بحيث لا تشابه الآباء، والذي يحدث في الانقسام الميوزي المشتمل على التصالب بين الكروموسومات، فيحدث زواج مع تبادل لبعض الجينات بين كل كروموسومين من الكروموسومات الزوجية المتماثلة في الشكل، والتصالب يؤدي إلى تحسين النسل، حيث ينشأ عنه اختلاف في صفات الأمشاج الجينية عن بعضها البعض وعن الأصل، بحيث لا يشبه الأبناءُ الآباءَ، ويختلف البشر عن بعضهم. ولا توجد كلمة تصف أحداث عملية التصالب ككلمة ﴿صُوَرَكُمْ﴾ التي تأخذ عدة معاني في لغة العرب يكمّل بعضها بعضًا من أجل وصف آلية التصالب وصفًا دقيقًا لا يقدر عليه البشر، ومجموع هذه المعاني هو ملخص آلية التصالب الذي يحدث فيه ميل وتعانق للكروموسومات مع تشقق وتقطع لبعض أجزائها لثقل الحمل على بعض أجزائها، ثم التحسين بتبادل الأجزاء

hiramagazine.com

المتقطعة بين الكروموسومات المتعانقة. ونلاحظ هنا أن التصوير جاء بالمعنى الثاني في لغة العرب وهو الاختلاف (حدوث تغيير في الصورة عن الأصل)، مع العلم بأن التصوير في اللغة العربية قد يراد به مطابقة الأصل فيكون بمعنى النسخ والتساوي، كما أنه قد يراد به الاختلاف عن الأصل.

٥- الحمض النووي لذُرية بني آدم يعتبر بمثابة صورة مركبة للجسد، نصفها من الأب والآخر من الأم، ويمكن فصل النصفين عن بعضهما والتعرف على كروموسومات الأب والأم بسهولة (اختبار البنوة)، قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانفطار:٨). والإنسان لم تتفرق أعضاؤه قط في الرحم فاجتمعت، بل خلقه الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ولكن الذي كان متفرّقًا فركبه الله هو "الأمشاج" التي كانت متفرقة فجمعها الله معًا في النطفة الأمشاج. وهذه الصورة بنصفيها المتراكبين تدل على الأصل الذي أُخذت منه الصورة وهو الأبوين، وحيث إنه يمكن فصل كروموسومات الأب عن كروموسومات الأم في الحمض النووي للابن، فإن إثبات النسب يأتي من خلال تحليل البصمة الجينية للابن وكذلك الأب والأم إذا كانت موجودة -ولكن ليس ضروريًّا وجود الأم- وفي هذه الحالة يكون هناك شراكة بنسبة ٥٠٪ بين الأب والابن في الجينات، وهذا يعني إثبات البنوة. وفي حالة عدم توافر هذه الشراكة، يمكن استبعاد نسب الابن إلى الأب، وبناء عليه يمكن التأكد من صحة النسب أو غيره.

إذن فالبصمة الوراثية تعتبر رؤية غير مباشرة لأصحاب الفراش دون كشف للعورات. فكما قلت في أول البحث، إذا دخلت نطفة الرجل إلى نطفة المرأة فلا يمكن أن تغادرها إذا قدر الله منها الولد، وبالتالي فإنه يمكن إمساك نطفة الوالد والتعرف عليها بداخل أي خلية من خلايا الولد. وإذا كانت القيافة تعتمد على علامات الوراثة الظاهرة -وهي طريق ظني- فإن البصمة الوراثية تعتمد على علامات باطنة وهي تحليل عوامل الوراثة المشتركة بين الولد والأب. وفي الحقيقة، الأخذ بالبصمة الوراثية (الصفة الجينية) هو الأقوى وهي الأصل والقيافة (الصفة الشكلية) تابع لها. فكما رأينا في حديث هلال بن أمية أن النبي ﷺ اكتفى بثلاث صفات شكلية في ممارسته للقيافة، وهذه الصفات الشكلية الثلاثة لا تعبر إلا عن ثلاث صفات جينية على الحمض النووي، وكلما رفعنا عدد الصفات الشكلية المستخدمة في المقارنة كلما أمكننا التعبير عن عدد أكبر من الصفات الجينية على الحمض النووي، بينما إذا استخدمنا الحمض النووي (البصمة الوراثية) فإنه يمكن لنا أن نحيط بكل الصفات الجينية، مع العلم بأن لكل صفة شكلية صفة جينية مقابلة على الحمض النووي، فكأننا بالبصمة الوراثية عقدنا مقارنة كاملة بين كل الصفات الشكلية للولد وأبيه، ولكن من خلال الصفات الجينية المقابلة للصفات الشكلية. ■

(*) كلية الطب، جامعة المنصورة / مصر.

hiramagazine.com

د. إسحاق السعدي*

براءة الإسلام
من العنف والإرهاب

لقد حدث خلط فاضح ولُبس خطير بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم الثقافة الغربية وبخاصة في مفهوم "الإرهاب". ولم يكن ذلك نتيجة الصراع الحضاري والفراغ العلمي والفكري في حاضر الأمة الإسلامية فحسب، بل يقف وراء ذلك بعض القوى المعادية للإسلام وثقافته وحضارته وأمجاد أمته وتاريخها المُشرق بالإسهام الحضاري والإنجاز الثقافي المبدع.

لقد أُلصقت عن سبق إصرار بعض المفاهيم الشائنة والمستهجنة التي ترسبت في البيئة الغربية وتجذرت في تاريخها، وباتت رموزًا ومصطلحات للأفعال القبيحة الهمجية والشريرة، ألصقت تلك المفاهيم البغيضة بالإسلام وأسقطت على بعض مفاهيمه -كمفهوم "الجهاد" و"الدعوة"- إمعانًا في تشويه صورة الإسلام، واستنزالُ أمته إلى حلبة صراع مفتعل ومواجهة مدروسة بغية النيل منها، وإحلال ثقافة العولمة في نموذجها المغاير لحقائق الأمة في قيمها الخلقية ومبادئها الإيمانية ومنطلقاتها وغاياتها، بل المناقض في كثير من

الأحوال لأسسها التي قامت عليها، وأهدافها التي تضطلع بها وتسعى لتحقيقها وفقًا لرسالتها في الحياة. إن الموضوع جد طويل، بيد أنني سأركز الحديث هنا عن حقيقتين:

١- سماحة الإسلام

كون الإسلام دينًا سماويًّا إلهيًّا ربانيًّا، ينبذ العنف والإرهاب، ويأمر بالرفق والرحمة والعدل والإحسان، شأنه في ذلك شأن الأديان السماوية قبل أن يطرأ عليها التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل:٩٠).

هذه حقيقة نابعة من جوهر الإسلام ومثله العليا، وصفة من صفاته، وسمة لازمة لعقيدته وشريعته وأخلاقه ومبادئه وقيمه وهديه وتعاليمه وآدابه، وهي كذلك حقيقة تاريخية انطلق منها حمَلة الإسلام في شتى مجالات الحياة، وفي علاقاتهم بالآخر أفرادًا وجماعات وأممًا وشعوبًا، بل وحتى مع موجودات الحياة وعناصر البيئة من حيوان ونبات وطير وحيتان وأنهار وبحار وهواء وغابات وأحراش، ومع منارات الأرض ومعالم الطبيعة ومكوناتها، وكانوا منضبطين في التعامل مع ذلك كله بضوابط الإسلام الشرعية والعقلية والمنطقية، بما حقق لها الانسجام مع نواميس الكون وطبائع الأشياء وسنن الفطرة. سواء في فتوحاتهم، أو في تعاملاتهم التجارية مع الشعوب المختلفة، أو حين سياحتهم وتنقلاتهم ورحلاتهم في فجاج الأرض وأقطارها وأقاليمها القريبة منهم والبعيدة، ونحو ذلك من المظاهر التي صاحبت انتشار الإسلام وظهوره وسيادته.

هذا هو المسار العام لتاريخ الإسلام ونشوء حضارته، والطابع المميز لأمة الإسلام وتاريخها سلمًا وحربًا دعوة وجهادًا. ولم يَندّ عن ذلك إلا حالات شاذة وقليلة لا يتأتى عليها القياس لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا يصحّ أبدًا أن يستدل بها -في عرف المنصفين وذوي الألباب من مختلف الديانات والثقافات- بما يعمد إليه نفر نكرة عن الإسلام وثقافته، من الجهلة والموتورين والمحبطين واليائسين وأصحاب السوابق الإجرامية والأفكار الشاذة المنحرفة الهدّامة، الذين يحسبون على الإسلام وثقافته -من المنظور الغربي- صَلَفًا واعتسافًا، في حين إنهم كانوا دومًا -وسيظلون- أداة بيد القوى المعادية للإسلام في القديم والحديث شعروا بذلك أم لم يشعروا، أدركوا ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر أم لم يدركوا.

وإذا كان الإسلام في حقيقته ينبذ العنف والإرهاب وكل أشكال القسوة والظلم والعدوان، ويحث على الرفق والتسامح ويأمر بالعدل والإحسان -وهذه الحقيقة من المسلّمات المستقرة في عقل كل مسلم ووجدانه- فإن ما يشاع عن الإرهاب وعلاقته بالإسلام وأمته قد ساعد عليه عاملان مهمان:

الأول: كون الإرهاب قد ألصق -ظلمًا وعدوانًا- بالإسلام في الوقت الراهن عبر وسائل الإعلام الغربية المختلفة، وبخاصة تلك الوسائل الموجهة لخدمة الأصوليات الدينية والعنصرية والصهيونية، ومما زاد الطين بلة صلة تلك الوسائل بأصحاب القرار السياسي، وسعة نفوذها الفكري والسياسي والاقتصادي.

والثاني: ظهور بعض الجماعات المتطرفة وانتهاجها أساليب العنف والعدوان، والبحث عن مرجعية فقهية يستندون إليها ويفسرون بها نصوص الكتاب والسنة، متجاهلين المناهج العلمية التي أصّلها علماء الأمة وما تقتضيه من علم شرعي ومشروعية على مستوى قيادات الأمة الفكرية والسياسية، ومصالحها العليا وظروفها التاريخية وواقعها الثقافي والحضاري. ومما يؤسف له ظهور أنصاف المثقفين والمتعلمين الذين أقحموا أنفسهم في التنظير والتدليل بما يذكي نار الفتنة ويحرج الأمة، حتى بلغ الأمر ببعض الكتاب أن يكتب مقالاً بعنوان "الإسلام دين الإرهاب"، مؤصّلاً لما يعنيه لفظ "الإرهاب" في اللغة العربية الإسلامية، متناسيًا أو متجاهلاً ما يحدثه اتحاد اللفظ مع اختلاف المضامين، ناهيك عن الخلفيات والإيحاءات والتحرشات التي يعاني منها واقع الأمة الإسلامية في صراعها وأزمتها الحضارية في سياق أصبحت المصطلحات جزءًا من

hiramagazine.com

ذلك الصراع وتلك الأزمة.

٢- الإرهاب مصطلح غربي

كون الإرهاب ظاهرة غربية في جذورها وتطوّراتها التاريخية، وفي منطلقاتها وأهدافها وغاياتها، وكذلك في وسائلها وأساليبها، وهذا ما تؤكده الدراسات والبحوث العلمية. إن المتأمل في مفهوم الإرهاب كطرح غربي يقف على الآتي:

أولاً: قدم هذا المفهوم كممارسة حدثت وتحدث على مدار التاريخ الغربي منذ العهود الرومانية وحتى العصر الحديث إلا ما ندر. فقد استخدم حكام الرومان من أمثال (Tiberius 14-37) و(Aligula 37-41) العنفَ ومصادرة الممتلكات والإعدام كوسائل لإخضاع المعارضين لحكمهم. كذلك الجماعات التي نشطت في التاريخ الأوربي وانتهجت القرصنة والإرهاب، مثل جماعة "الفايكنج" التي نشطت ما بين القرن الثامن والحادي عشر للميلاد، وبثت الإرهاب والرعب في مناطق واسعة من أوربا. ثم جاءت الحروب الصليبية التي لم يشهد التاريخ كعدوانيتها، ومع ذلك كانت تلك العدوانية مقبولة في ثقافة الغرب لمدة بلغت من الطول حدًّا لا يسمح لها بالاختفاء على حد تعبير "كارفين رايلي". ثم محاكم التفتيش التي قام بها الأسبان ضد الأقليات الدينية والمسلمين بخاصة كأهم المحطات الرئيسية في تاريخ الثقافة الغربية، ناهيك عمّا أحدثته الحروب الصليبية في بيت المقدس وما حوله من الفظائع التي يندى لها الجبين في تاريخ العالم الغربي الديني.

وعلى نحو من ذلك، مارست الدول الحديثة في الغرب الإرهاب كخطة سياسية للدولة، كدولة "هتلر" النازية في ألمانيا، وحكم "ستالين" في الاتحاد السوفيتي، حيث تمت ممارسة إرهاب الدولة تحت غطاء "أيديولوجي" لتحقيق مآرب سياسية واقتصادية وثقافية.

وعلى مستوى الجماعات والمنظمات، فإن التاريخ الحديث للغرب شهد الكثير من ذلك، مثل جماعة "بادر ماينهوف الألمانية"، ومنظمة "الألوية الحمراء الإيطالية"، و"الجيش الجمهوري الإيرلندي"، وغيرها كثير.

ثانيًا: والأنكى من ذلك أن يرتكز العنف والإرهاب

إن المتتبع لمعنى الإرهاب يجد أنه يختلف عن معنى الإرهاب الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية والمعاني المعهودة في الثقافة الإسلامية، وأن ما يقابله في الحضارة الإسلامية هو الإجرام المركب من "الفساد في الأرض، والحِرابة، والظلم والعدوان"، وكل هذا يحرمه الإسلام ويجرّمه أشد التجريم، ويفرض على مرتكبيه عقوبات صارمة.

على أصوليات دينية ونصوص مقدسة، يقول "كارفين رايلي": "لقد اكتسبنا القدرة قبل الحروب الصليبية بعهد طويل على تبرير أشد أفعالنا بربرية؛ باسم الله أو باسم الحضارة المسيحية أو باسم العالم الحر، وهي الصورة العلمانية لهذه الحضارة. فالثورة العبرانية حاملة بالفظائع التي أصر "شعب الله المختار" على أنها ترتكب باسم الرب، وقلما نجا المصريون أو القبائل الكافرة من انتقام "الرب الغيور"، وقد ظل المسيحيون على إيمانهم بهذا المنتقم. وفي نهاية القرن الرابع ردد كثير من المسيحيين في "روما" دعوة "أمبروز" للدفاع عن "بلدهم" ضد البرابرة منعدمي الإنسانية الذين لم يكونوا سوى "كلاب" على حد تعبير أسقف آخر".

مما يؤسف له، أن هذه الأصوليات تطفح في العهد الراهن على سطح السياسة الغربية، وتتنامى الأصوليات الأخرى بدعم منها أو تقليدًا لها.

ثالثًا: مما يلاحظ على تاريخ الغرب أن ثقافته ترتكز على محفز حضاري يتمثل في تصور عدو متربص يتأهب بين الحين والآخر للانقضاض عليه ويستهدف منجزاته الحضارية، كي يقوم بنسفها وإرهاب شعوبه وتصفية قادته وزعمائه. وبعمل ماكر لئيم من القوى المعادية للإسلام، استغل الوضع الراهن ولا سيما بعد سقوط الشيوعية وما أحدثه ذلك من فراغ في تلك الجدلية الفكرية التاريخية، فدفع بالإسلام تحت مسمى "الخطر القادم"، وهبَّ المغرضون والناقمون والمأجورون للتنظير لذلك، والتدليل عليه بما يرتكبه بعض الحمقى والموتورين والمغفلين ممن ينتسب للإسلام، وتورط في انتهاج الإرهاب واستحلاله ضد الآخرين وضد أبناء

ملته، وتطورت الأوضاع تحت أنشطة مشبوهة وتحت مسميات مختلفة ومسوغات ملفقة يبرأ منها الإسلام وأمته، حتى كانت قاصمة الظهر (أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١)، وإذا بالمواجهة مع الإسلام تحت مسمى "الحرب على الإرهاب" واقع مفروض لا مفر منه، وإذا بالأمة الإسلامية تُستنزل في ميدان فرض عليها وبمنطق المتنفذ المتحفز للأخذ بالثأر المخدوش في كرامته وكبريائه. وختامًا أودّ التنبيه إلى النقاط الآتية:

١- النظر في المفاهيم والمصطلحات التي توظف في المعترك الحضاري أو يُسوَّق لها سياسيًّا، كمفهوم العنف والإرهاب، بمنهجية تختلف عن ما اعتاده الباحثون المسلمون من تأصيل المفاهيم المثارة في الساحة الفكرية من خلال بحثها في اللغة العربية، ثم في القرآن الكريم، ثم في السنة النبوية، وما تواضع عليه العلماء المسلمون في صدر الإسلام وتاريخه الماضي... فعلى أهمية هذه المنهجية في التأصيل، إلا أنه ينبغي اعتماد المنهجية الملائمة لمثل هذه المفاهيم والمصطلحات، بحيث تعتمد على استقراء تلك المفاهيم في الساحة الفكرية، وفي الأوساط الإعلامية والسياسية، والمؤسسات العلمية الغربية والمنظمات والهيئات الرسمية وغير الرسمية، والغوص في دلالاتها من خلال البيئات التي نشأت وتطورت فيها، ولها خلفياتها الدينية والثقافية والتاريخية في سياق الحضارة الغربية، ثم مقارنة تلك المعاني والمفاهيم والدلالات بما يقابلها في الحضارة الإسلامية وثقافتها، لئلا يقع المسلمون في شراك اختلاف المفاهيم والمضامين والدلالات.

على ذلك، فإن المتتبع لمعنى الإرهاب -بخاصة في الثقافة الغربية سواء في القديم أو الحديث- يجد أنه يختلف عن معنى الإرهاب الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية والمعاني المعهودة في الثقافة الإسلامية، وأن ما يقابله في الحضارة الإسلامية هو الإجرام المركب من "الفساد في الأرض، والحِرابة، والظلم والعدوان"، وكل هذا يحرمه الإسلام ويجرمه أشد التجريم ويفرض على مرتكبيه عقوبات صارمة.

٢- أهمية الإنصاف والنزاهة والإيجابية في النظر لتاريخ الأمم والشعوب، وعدم التوافر على صفحات دون أخرى سواء السلبية أو الإيجابية. فإن النظرة الشمولية الموضوعية العلمية المنهجية النزيهة جديرة بالإنصاف والتعقل، و"الحكم على الشيء فرع عن تصوره".

الأهم من ذلك، العمل الإيجابي على إبراز القدر المشترك بين الأمم والشعوب في ثقافاتها وآدابها وركائزها الإنسانية النبيلة والسامية، ليتأتى للبشر العيش بسلام وتعاون في ظل نظام عالمي متحد في إطاره الحضاري، متنوع في ثقافاته، يحفظ لكل أمة ذاتيتها المتميزة بعقيدتها وشريعتها وآدابها وأخلاقياتها وتراثها الحضاري الخاص، ويوحد بينها فيما تفرضه حضارة العصر ومنجزاتها التي هي في الحقيقة موروث بشري عام أسهمت فيه الأمم والحضارات وقامت بالإسهام الحضاري للإسلام وأمته -الذي يعترف به المنصفون- أنْ يؤهل المسلمين للفاعلية الحضارية من جديد، ويؤكد على أحقيتهم في الملكية الفكرية، وأنهم في صميم التاريخ الحضاري وفي بنيته الأساس، وليسوا شعوبًا خاملة عاشت وتعيش على هامش التاريخ والحضارة.

٣- إذا كان هذا المقال قد ركز على حقيقتين مهمتين هما: سماحة الإسلام وبراءته من الإرهاب، والإرهاب مصطلح غربي نشأ في الغرب وتطور فيه، فإن القصد من ذلك إضاءة لما غيبته التيارات المناوئة للإسلام وأمته، وليس القصد وصم الغرب بالإرهاب، إذ جاءت الحضارة الغربية بمعطيات حضارية، وارتكزت على قيم إنسانية أفادت الإنسان ونهضت به، ولها تطبيقاتها الديمقراطية وإيجابياتها المعتبرة في مجال حقوق الإنسان ورعايتها وتحقيق العدالة من خلال إجراءات قانونية وأنظمة مدنية راقية. بيد أن الخلل يكمن في المتأمرين على السلام من أصحاب المصالح الشخصية والمطامع الذاتية التي لا تقنع بالمشروع ولا تعترف بالآخر. ولكن لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، حمى الله الإسلام وحفظ المسلمين ووفقهم لما فيه صلاح أنفسهم وصلاح البشر. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

أ.د. الشاهد البوشيخي*

ضرورة العودة إلى القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦). وقال ﷺ: "خيركم من تعلّم القرآن وعلمه" (رواه البخاري).

لقد أمرنا ربنا أن نَذكر نعمَه علينا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾(المائدة:١١). وإن من النِّعم العظمى علينا أنْ جعلنا من أبناء آدم وهي نعمة يجب أن تُذكر، لأن هذا المخلوق -أبانا آدم- كرّمه الله ﷻ واستخلفه، إذ قال قبل أن يَخلقه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠). إنه تعالى كرّم هذا الخليفة وكرّم أبناءه من بعده جميعًا حيث كونهم بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)؛ إنها نعمة عظيمة ينبغي أن نتفكر فيها ونذكرها، لأن النعم إنْ لم تُذكر لن تُشكر، فأول الشكر للنِعم أن تُذكر. ونعمة "التكريم" نعمة عظيمة جدًّا، ونِعمة "الخلافة" عن الله نعمة عظيمة جدًّا، ولكن على قدر النِعم تكون المسؤولية. هل مَنّ الله علينا بهذه النعمة العظيمة فقط؟ ما أكثر نعم الله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(إبراهيم:٣٤).

نعمة الإسلام

من النِّعم التي فوق هذه النعمة هي نعمة الإسلام التي قال الله عنها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣)، نعمة الإسلام إذن أعظم من النعمة السابقة. فكَم من أبناء آدم لا يتمتعون بنعمة الإسلام التي بها -لا بغيرها- يتم الفوز في الدنيا والآخرة. إنها نعمة كبيرة ينبغي أن نُفكر فيها فلِمَ اجتبانا الله واصطفانا من بين أبناء آدم ليَمُنّ

علينا بهذه النعمة؟ ينبغي أن نفكر ونذكر هذه النعمة ذكرًا يدفعنا إلى الشكر، ونتأمل في الفوائد الكثيرة لها، وحسبك أن النجاة بها في الدنيا، والفوز والنجاة الحقيقية بها في الآخرة، إذ لا فوز هناك إلا بالإسلام: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(مريم:٧١-٧٢). والمسلمون "مُتقون"، إذ لا يُتصور إسلام بغير تقوى، وهدايةُ الله في كتابه -الذي هو الهدى- لا تنفع غير المتقين، وهم وحدهم الذين يهتدون بهذا الكتاب: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:٢)، كما أن قبول الأعمال إنما يكون من المتقين، ووراثة الجنة تكون بما عملنا هنا: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:٤٣)، والوارثون للجنة هم المتقون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾(المؤمنون:١٠-١١). إذن نعمة الإسلام لا تُقدّر بثمن لفوائدها في الدنيا وفائدتها العظمى في الآخرة، إذ الحياة حياتان، حياة صغيرة بمثابة مقدمة لموضوع لا نهاية له اسمه "الآخرة" وهي الحياة: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤). وبالتالي فإننا نتمتع بنعمة أخرى أعظم من هاته النعمة، حيث نشترك فيها مع العديد من الأمم مضت من المسلمين، لأن جميع الأمم السابقة هم مسلمون؛ جميع الأنبياء كانوا مسلمين، موسى عليه السلام مسلم، وعيسى عليه السلام مسلم، وأتباعهما مسلمون، ودينهم الإسلام لا غيره. فمقولة الأديان السماوية، خرافة، لأن الدين واحد عند الله وهو الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩)، إلا أنه نزل على مراحل حسب حاجات الإنسان وحسب حكمة الله سبحانه. وحين وصلت الأمة إلى مستوى من النضج، جاءها الكتاب الذي نَزل منه بعض الكتب من قبلُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾(النساء:٤٤)، أما هذا فـ"ألم، ذلك الكتاب" هو الذي في الذِّكر الأصل، وهو كتابٌ مصدقٌ لما بين يديه من الكتاب ومهيمنٌ عليه. فهذا هو الكتاب، نَزل في صورته الخاتمة، في الصيغة الأخيرة لأبناء آدم نزولاً تامًّا كاملاً لا نقص فيه ولا عيب: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾(فصلت:٤٢).

نعمة الشهادة على الناس

إن كان الإسلام نعمة تشترك فيها الأمم الأخرى قبل أمة محمد ﷺ، فما هي النعمة التي لا يشاركنا فيها غيرنا إذن؟ إنها نعمة "الشهادة على الناس". ما نَزل من الكتاب من قبلُ، استحفظ عليه الناس: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(المائدة:٤٤). أما هذا الكتاب -حيث لن يأتي بعدُ لا نبي ولا رسول- فحُفظ من الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). فمن الذي يقوم بوظيفة الأنبياء التي تتلخص في تجديد أمر هذا الدين وتبليغ رسالة الله لمن لم تَبلُغه؟ تلك هي رسالة هذه الأمة، وهي النعمة الثالثة الكبرى التي تخص المسلمين من هذه الأمة (أمة محمد ﷺ)، لأن رسالته تتشخص بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾(الأحزاب:٤٥)، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾(النساء:٤١)؛ هذه الصفة الملخَّصة لوظيفته ورسالته ﷺ هي نفسها لأتباعه من بعده في صورة أمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣)، هي نفس الصفة التي للرسل: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). هذه النعمة تتضمن ما سواها وتزيد، وفيها التشريف الكبير، ولكن -كما أشرت في البداية- ما من نعمة إلا وتَستَتبع مسؤولية؛ إذ هي أمانة تتطلب الأداء، فإن أُديت كان الجزاء العظيم، وإن لم تؤد كان الوزر الغليظ، فعلى قدر الأمانة يكون الأجر أو الوزر. وبما أن هذه الأمانة عظيمة جدًّا، فإن أجرها -إن حملناها بأمانة وأديناها بكفاءة- سيكون عظيمًا جدًّا. ولكن إذا لم نَحملها بأمانة ولم نؤدها بكفاءة وجدارة، فإن وزرها لا يكاد يُتصور؛ مَن ضُربت عليه الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله سبحانه صارت لهم الولاية علينا. مَن يريد العزة فإن العزة لله جميعًا. والعزة أصلاً لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكننا نعيش حياة الذُّل، حالة الذُّل على المستوى المحلي وعلى المستوى العالمي، لِم هذا كله؟ إن القصة تتلخص في شيء بسيط اسمه "هدى الله"، الذي قال الله فيه لأبينا آدم عليه السلام بعد أن أَهبطه من الجنة إلى الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ

hiramagazine.com

هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(طه:١٢٣-١٢٤)؛ لأن الهدى موجود وأعرض عنه، كما عبر في الآية: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾(الأعراف:١٧٥)؛ هي بمثابة جلدٍ يَلبسه فأزاله، والأصل في اللباس أن يقي ويستر، فحين انسلخ أتبعه الشيطان، لأن الأصل الأول حين أكل أبونا آدم وأُمّنا حواء من الشجرة، بدت لهما سوءاتهما. فالمعصية تخرق الجُنة أيْ الرداء أو الدِرع الذي يمنعنا من الضلال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(الأعراف:٢٦). هذا الذي هو واقعٌ سببه واضح جلّي، إنه الانسلاخ من "هدى الله"، والإعراض عن "هدى الله": ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه:١٢٤).

هذا الذكر وهذا الكتاب يوم استضاء به أعراب الجزيرة العربية وبَدْوِها، فتحوا الكرة الأرضية شرقًا وغربًا جنوبًا وشمالاً. عقبة بن نافع أدخل حوافر فرسه في البحر وقال: "لو كنت أعلم أرضًا وراء هذا البحر لخضته بفرسي، فاتحًا لها ومُبلغًا نور الله لعباد الله". وفي نحو نصف قرن تقريبًا، امتد من المحيط الأطلسي مع ثلة من الأعراب والبدو -وليس مع جيش منظم أبدًا- لا عُدّة ولا عتاد ولا عدد، وإنما مخلوقات جديدة ولدت ولادة جديدة بنفخ روح القرآن فيها، لأن القرآن روح تُنفخ لا كلمات تُتلى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(الأنعام:١٢٢)؛ فبدون القرآن نحن أموات غير أحياء، وبالقرآن نصير أحياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فحين نصير أحياء تنفع فينا النِّذارة: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾(يس:٧٠). أما الذي ليس بحي فكأنما تَنفُخ في رماد بارد. الملايير التي تراها في العالم، موتى غير أحياء حتى يَحيوا بالقرآن، فالذي جعل الجيل الراشد الأول يفتح العالم ويحمل النور إلى أقاصي الكرة الأرضية؛ نرى البخاري ومسلم يجمعون سنة رسول الله ﷺ من أقصى شمال الكرة الأرضية، ونرى طارق بن زياد يحمل النور إلى أوربا، وغيره يحملون النور إلى أقاصي السند والهند في شرق الكرة الأرضية. ذلك كله إنما كان

لا مخرج اليوم مما نحن فيه من الذلة إلى العزة، من الجهل إلى العلم، من الضعف إلى القوة، من الظلمات إلى النور إلا بهذا القرآن. فلنُقبل عليه بصدق، نلتمس فيه الهدى لكل جزئية صغرت أم كبرت، تعلقت بالأرض أم بغير الأرض.

بهذا القرآن فقط، لكن ليس بالقرآن النصّي المعزول الموضوع على الرف بالنص المزين المزخرف، بل بالقرآن الذي يسكن عمق القلب، ويسري عبر العروق ليسكن الخلايا، لينفخ روحًا جديدة فيك، ليولدك ولادة جديدة إلى أن يجعلك خلقًا آخر:﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾(المؤمنون:١٤). إن القرآن روح بنص القرآن نفسه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). القرآن، له نفس خاصية الروح، والتعبير عنه بنفس التعبير الذي عبر به عن الروح التي نعرف جميعًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(الإسراء:٨٥)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾. وخاصية الروح العادية التي نعرف، هي توحيد الكيان الصغير للفرد، جمع شتات أجزائه وإعطاؤهما القدرات التي تصير للكائن الحي: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح" (رواه البخاري)؛ إذ ذاك يصير كما صرحت الآية: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾. تلك الروح التي نفخت في القسم الطيني من بني آدم صيّرته خلقًا آخر، والموت ليس فناء، وإنما فصل للعنصرين عن بعضهما، فيرجع العنصر الطيني إلى طينه (إلى الأرض)، وتذهب الروح إلى بارئها غير فانية حتى يعود اللقاء بعدُ. الذي رجع إلى الطين يتجزأ ويتفتت ليس له أي قدرة، كل القدرات اختفت منه بمجرد ذهاب عنصر الروح. كذلكم -وأيم الله- جسد الأمة الإسلامية، إن روحها القرآن، إذا نفخ فيها صارت جسدًا ولم تبق عِضين ولا أباديد ولا شراذم وجزئيات ولا فتاتًا مفتتة كما هو الحال، بل صارت جسمًا واحدًا كما عبر عنه الحديث:

hiramagazine.com

"مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثَل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى" (رواه مسلم). هذه الخاصية هي للجسد، والتي هي مظهر للتراحم والتعاطف والتواد... إنما كانت في الجسد بسبب الروح، وإلا حين يموت الميت قلَّ لجسده أن يحدث فيه مثل هذا.

فالأمة الإسلامية يمكن أن تعود جسدًا بسرعة إذا نُفخت فيها الروح، وإنما تنفخ فيها الروح بنفخها في الجزئيات المكونة لها، أي الأفراد، ثم في الأسر، ثم في التكتلات البشرية المكونة للمجموع. إذن فالمدار على القرآن، به ارتفع من ارتفع، وبه اتضع من اتضع كما هو حالنا اليوم، وهو ما يؤكده الحديث: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين" (رواه مسلم). لننتبه إلى هذا الجار والمجرور "به": ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ لا بغيره. إذا التمسنا الهدى في غيره أضلنا الله وهو الحال الذي نعيش: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾(البقرة:١٢٠) بالحصر. لا ينبغي ولا يجوز أن يلتفت المسلم فردًا أو أسرةً أو جماعةً أو دولةً أو أمةً لغير القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩). أقوم على الإطلاق؛ إنما الهدى هدى الله. إن هذه الحقيقة يجب أن تستقر، لا صِدق لاستقرارها إلا بالإقبال الصادق على القرآن تعلمًا وتعليمًا. حين دعا إبراهيم عليه السلام وطلب قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٢٩)، واستجاب الله فـ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢). لا مخرج اليوم مما نحن فيه من الذلة إلى العزة، من الجهل إلى العلم، من الضعف إلى القوة، من الظلمات إلى النور إلا بهذا القرآن. فلنُقبل عليه بصدق، نلتمس فيه الهدى لكل جزئية صغرت أم كبرت، تعلقت بالأرض أم بغير الأرض، يجب أن نجتهد في هذا حيث ما كنا، إن كنت معلّمًا فلأجتهد لأُعلّم الهدى ما استطعت، إن كنت مفتشًا فلأجتهد أن أوجّه الأساتذة والمعلمين هذا التوجيه، وإن طُلب مني أن أفعل غير الهدى فينبغي بأي حال ألا أفعل، وإن أُمرت أن أترك الهدى فينبغي ألا أتركه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾(العلق:٩-١٤). هذا الناهي للعبد الذي يصلي بالمقال أو بالحال، هذا الناهي للعبد الذي هو على الهدى، هذا العبد الناهي للعبد الآمر بالتقوى -أي بالهدى- ما الجواب الصريح في آخر السورة؟ ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)، إنما الطاعة، في المعروف. إذا أردنا أن نعرف المعبود الواقعي الحق... من نعبد؟ نزعم أننا نعبد الله، وندّعي أننا نشهد "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، لكن الواقع لا يصدّق هذا، فهذه الدعوى ليس لدينا عليها بيّنة... إذن من نعبد حقيقة؟

هناك طريقة بسيطة جدًّا ليعرف كل واحد منا معبوده؛ إنه ببساطة، الذي يضحّي بكل شيء من أجل رضاه هو، ولا يضحّي به من أجل أي شيء آخر... إن كان المرأة أو الوظيفة أو المال، فذلك هو المعبود. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة" (رواه البخاري). وليقسْ ما لم يقل كما قال ابن مالك: المعبود هو المحبوب الأكبر ليس باللفظ، ولكن تضحي في الواقع من أجله. المحبة لها تعبير مادي كما قال الرسول ﷺ: "الصلاة نور، والصدقة برهان" (رواه مسلم). فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، إذا لم يُصدّق العمل ما في القلب، فليس هذا ما جاء به محمد ﷺ، وليس هذا معنى "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، إذ إن أول هدف لـ"لا إله إلا الله محمد رسول الله" أن تُوحّد المسلم، أن توحد ابن آدم، أن توحده في قِسمَيه الاضطراري والاختياري، هو في القسم الاضطراري عبد لله شاء أم أبى، وفيه قسم اختياري يجب أن يوحّده مع القسم الاضطراري فيصير أيضًا مؤتمِرًا بأمر الله كالقسم الآخر.

وجهات ثلاث يجب أن تتوحد؛ جهة القلب، وجهة اللسان، وجهة الفعل، أن يكون لها إله واحد متعلق

hiramagazine.com

بالقلب رهبة ورغبة. "الله أكبر وحده"؛ هذه العبارة ينبغي أن نفكر فيها، ما معنى "الله أكبر"؟ ولماذا امتلأت بها الصلاة؟ لأننا في الواقع لا نجعل الله أكبر، بل نجعل أشياء أخرى أكبر. ولا يمكن أن نقوم بوظيفة الشهادة على الناس ما لم تمتلئ قلوبنا بأكبرية الله. ولذلك كان أول شرط في الإنذار والتبليغ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ بالحصر، ولم يقل الله "وكبّر ربك"، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(المدثر:١-٣)؛ لأنه إذا كان أي شيء في قلبك أكبر من الله فإنك ستؤتى منه، وإذا كان الله عندك أكبر من كل شيء وأنك مستعد للتضحية بكل شيء من أجل إرضائه، إذ ذاك يمكنك أن تفعل أي شيء أمَرك الله به وتَقدر عليه بيسر، وتدخل في قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين سأله: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال ﷺ: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه" (رواه الترمذي). هذا التيسير هو بهذه العبودية الصادقة، ولهذا تشير الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾(التوبة:٢٤).

إذن تتلخص القضية في الإقبال بصدق على القرآن الكريم في الصورة الفردية والجماعية، مَن شاء أن يتحدث فليكرع من القرآن، فليتضلع من القرآن، من شاء أن يفكر فلينطلق من القرآن، من شاء أن يُترجم فليزن بالقرآن... القرآن هو المنطلق، والقرآن هو الغاية، والقرآن هو الهدف، والقرآن هو الميزان، والقرآن هو الوسيلة، والقرآن كل شيء... لنَعُضّ عليه بالنواجذ ولنُعِد بناء الإنسان على أساس منهاجه الأول الذي اختاره الله ﷻ لرسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾(آل عمران:٧٣)، وقال كذلك: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(البقرة:١٣٥). ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

قطرات الماء

قطرة فقطرة،
رشحة فرَشحة..
فالقليل إلى القليل،
طريقًا يشقّ،
وسبيلاً يمهّد..
وبمشيئة الخالق،
غدًا يطفح الماء،
والظامئين يسقي،
والعطاش يروي..

* * *

أديب إبراهيم الدباغ*

إما وإما

إما أن يسحقنا الزمن ويفتِّت وجودنا ويلاشي كياننا ويسلخنا عن هويتنا، وإما أن ننتبه ونأخذ حذرنا ونحشد قوانا، ونجنّد أفكارنا ونبعث قدراتنا، ونستحضر إراداتنا ونحفز هممنا، ونبذل جهدنا لإنقاذ أنفسنا من سطوة أثقاله الفكرية وجفافاته الروحية وغياب إيمانه وهشاشة عقيدته ولادينية علومه ومعارفه.

فرجال الفكر والروح من أبناء جلدتنا، هم اليوم مدعوون أكثر من أي وقت مضى للتصدي لما يحمله إلينا هذا الزمن من مخاطر تَمَسُّ الصميمَ من إيماننا، واللبَّ من كينونتنا كأمة إيمان ودين وثقافة وتاريخ. وعلى الرغم من محاولات الطمس والإقصاء والتشويه الذي يعانون منه، غير أنهم قادرون -بما يملكون من ثراء روحي وإيماني- أن يسطعوا في كل سماء، ويتوهجوا في كل فضاء. فعظمة هؤلاء الروحية، وعبقريتهم الفكرية، أوسع من أنْ يَحجبها حجاب أو يُغيِّبها سحاب؛ فهم موجودون عند المكان الذي ينبض فيه قلب العالم، ليصلحوا شأنه ويعملوا على انتظام دَقّاته وضبط خفقه، وهم موجودون حيثما يكون وجودهم أكثر لزومًا وأعظم نفعًا. إنهم بسلاء روح، وشجعان فكر، وأقوياء إرادة، وعظماء إصرار وتصميم؛ فشعورهم أنهم مندوبو القدر لإصلاح العالم يزيد في حماسهم واندفاعهم نحو روح العالم بهالات المجد التي افتقدها، وإحلال هذا الروح في المكان الأرفع والأسمى من اهتمامات البشرية، إنهم في الحق شرارات فكر تضيء دياجير العالم وتنير طريق الهداية والاستقامة.

فهذا العالم الإنساني بات بعد هذه القرون المثخنة بالتحولات المادية الكبرى متعبًا شديد التعب، محبطًا شديد الإحباط. إنه يبحث عن رجل روح عظيم يتولى زمامه، ويقود خطاه، ويبدد السحاب القاتم والمخيم فوق الروح الجمعي ليحجب صفاءه، ويغطي على تألقه وتوهجه. فمن خلال عدة كتب ومقالات وخطب ومحاضرات، استطاع هؤلاء الأفذاذ أن يستنبتوا في الأذهان فكرًا جديدًا يريدون أن يتحول إلى حقائق يعيشها الناس كشأن من شؤون حياتهم الدنيوية الأخرى، وهذا الفكر الروحي مرشح اليوم للهيمنة على ساحة الثقافة المحلية ومساحات من الثقافة العالمية.

وهذا الفكر الروحي -شأنَ كل الأفكار الروحية العظيمة- لم يعد بعد اليوم قادرًا على الانكفاء والوقوف في ساحة ثقافية واحدة حتى لو أراد صاحبه ذلك، لأنه فكر -بطبيعته- امتدادي توسعي، إذا توقف عن السريان نكص وانتكس. كما أنّ أيَّ صاحب فكر إذا ما نشر فكره وأبان عنه ودعا إليه، خرج عن ملكيته، وصار ملكًا لجموع قرائه والمتأثرين به والمتعلمين منه، وخرج كذلك عن محليته وخصوصيته إلى العمومية والعالمية.

وبعض قرَّاء هذا الفكر قد ينتابه الاندهاش والعجب من علوه وسموّه، ومن امتداداته الأفقية والعمودية، حتى ليكاد يقفز فوق عقلانية العصر وسياقاته الفكرية ومواضعاته المنطقية. وهذا أمر طبيعي، لأن العبقرية بحد ذاتها لهبٌ فكري لا يقاس ولا يطال؛ فهو يقلب الموازين، ويشعل الهشيم، ويحرق العتيق، ويأتي بالجديد، وينشئ للآتي من الأيام والأجيال، ويبني للقادم من الإنسانية والإنسان.

فإما أنْ نحثّ الخطى ونجري سراعًا وراء طموحنا الذاتي، فنزيد علوًّا، ونزيد فهمًا وإدراكًا، ليزيد نتاجنا، ويعظم شأننا، وتكثر أيادينا، وتسهم عقولنا مع عقول الآخرين في انتشال الروح الإنساني من وهدته وقيامه من سقطته، وإما أن يكون نصيبنا من هذا العصر عدوى تصيبنا من أمراضه الكثيرة، فنقع مغشيًّا علينا فلا نفيق من غشيتنا إلا على صوت نفير القيامة فنندم ولات حين مندم. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

أ.د. عرفان يلماز*

البوم
ملك الليالي

مرحبًا أيها الإنسان، أنا "البومة"... أقف بين أيديكم اليوم لأحدثكم عن البدائع التي وضعها ربي فيَّ، ثم لأردّ على افتراءاتكم التي توجهونها إليّ بأني "جالبة للشؤم". فقد بلغني أنكم تقولون لمن يملك صفات سيئة: "وجهه مثل البوم"، وتصفون أماكن الشؤم بـ"عُش البوم"، ولكن كل ما تقولونه لا يعبّر عن الحقيقة أبدًا، إني أختار المباني المهجورة لوفرة الفئران فيها وهدوئها ليس إلا. كيف تقولون ذلك وأنا الذي جُعلتُ سببًا لحمايتكم من الحيوانات الضارة؟ ربما ترتعبون من عينَي الكبيرتين الموضوعتين في مقدمة رأسي، ولعل نشاطي في الليل يثير فيكم القلق أيضًا. ولكن ماذا أفعل؟ لقد خلقني ربي على هذه الصورة؛ أعيش في الليل وأسعى وراء لقمة العيش بخلاف معظم الحيوانات التي تنشط في النهار.

أنا من الطيور التي لم يُعرف من خصائصها إلا القليل، إذ نشتهر بوقفتنا المنتصبة الأصيلة، وربما كانت تلك الوقفة سببًا لتسميتنا بـ"سيد الطيور" (baykuş) في اللغة التركية.

نظامنا الأيدولوجي

إناثنا -نحن معشر البوم- أضخم من ذكورنا، نتناول غذاء يتناسب مع أحجامنا. ثم إننا مسخرون للحفاظ على التوازن البيئي، ونتغذى على الجرذان والفئران والقوارض، وقد يقتات بعضنا على العصافير الصغيرة. فبينما تتغذى أنواعنا الصغيرة على الحشرات واللافقاريات، تتغذى أنواعنا المتوسطة على القوارض والعصافير، وأما أنواعنا الطويلة فتستطيع أن تصطاد الطيور الكبيرة والغزلان الصغيرة من الثدييات أيضًا. قبل أن نشرع بالصيد نقوم بتصنّت محيطنا جيدًا،

تملك البومة عيونًا كالمجهر، تنظر إلى الكائن من زوايا مختلفة وبمعايرة دقيقة للمسافات، مما يمكّنها من رؤية ثلاثية الأبعاد.

وبمجرد التقاطنا صوتًا -ولو كان ضعيفًا- نحوِّل أنظارنا إلى تلك الجهة ونقوم بالتركيز على ذلك الصوت، وبعد تحديد المكان نتسلل نحو الفريسة ونقضي عليها بضربة مخلب واحدة.

وها أنا ذا أقدّم إليكم بعض الأرقام التي تساعدكم على إدراك مكانتنا في التوازن البيئي: زوجٌ من البومة الصمْعاء، يستهلكان يوميًّا سبع قوارض من الحيوانات يبلغ وزن الواحدة منها ٢٠ جم، وبذلك يتم خلال شهرين من السنة تنظيف نسبة ٢٨-٧٠٪ من الفئران و١٨-٤٦٪ من الجرذان التي تعيش في غابة من الغابات. ولكن في هذا النظام البيئي يحدث أحيانًا العكس؛ إذ التغيرات التي تطرأ على عدد القوارض هذه، يؤثر طرديًّا على عددنا نحن البوم أيضًا، ففي السنوات التي ينخفض فيها عدد الفئران والجرذان، تنخفض فيها أعدادنا أيضًا. كل ذلك يحدث من غير علمٍ منّا ولا تقدير، فنحن لسنا سوى مترجمين لأسماء خالقنا الحسنى، وتجلياتٍ لها من غير شعور، فهو المدبر وهو المقدر سبحانه.

خبراء الصيد

لقد خلَق لنا ربنا أجنحة طويلة توفّر لنا الطاقة أثناء الطيران وتسهل علينا مهمة الصيد، إذ البومة الصمْعاء (strix aluco) تستطيع التقاط الضفدع في الماء وهي تطير، كما تتغذى البوم الحفار (speotyto cunicularia) على اللاّفقاريات في البراري، أما البومة المخططة (strix varia) فتتغذى على الطيور الصغيرة التي ترتاد إلى محطات تغذية الطيور دومًا، وأما أنواعنا من بوم الأسماك (ketupa zeylonensis) تملك تقنية تمكّنها من صيد الأسماك بكل سهولة.

كما تستطيع بوم الثلج (nyctea scandiaca) التي تستوطن القطب المتجمد الشمالي رؤيةَ أبسط حركة تقوم بها فأرة مختبئة تحت طبقة من الثلج تبلغ ٣٠ سم، وذلك من موقعها على الشجرة، فتركّز انتباهها على تلك البقعة ثم تتسلل في صمت لتنقض على تلك الفأرة، فتمسكها وكأنها وضعتها بنفسها هناك. نحمل فريستنا قطعة واحدة بمناقرنا خلافًا للصقور والنسور، ولكن إذا كانت الفريسة كبيرة، نفصل رأسها ونرميه زادًا لمن هو أصغر منا حجمًا، ونبتلع سائر الجسد حتى الذيل، أما إذا كانت الفريسة صغيرة نبتلعها برمتها دفعة واحدة ونطرح من فمنا أجزاءها التي لم نستطع هضمها.

حياتنا الأسرية

تهاجر بعض أنواعنا من البوم بحثًا عن رزقها عندما تقل الفئران. فتهاجر بوم الثلج -مثلاً- من القطب المتجمد الشمالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية عندما تقل الفئران. معظم ذكورنا تتزوج بأنثى واحدة فقط، ونادرًا ما نرى ذكورًا تتزوج أكثر من أنثى إلا عندما يكثر الصيد. يعتني الذكر بالأمّ والفراخ في فترة حضانة البيض باعتباره ربًّا للأسرة. موسم التكاثر يتوافق مع الموسم الذي تكثر فيه مصادر الغذاء، إذ يتم وضع البيض في نصف الكرة الغربي مبكّرًا في شهر شباط، الأمر الذي يُجبر الذكور على الصيد في البرد القارس لأن الإناث تكون منشغلة بحضانة بيضها. وفي المناطق الاستوائية يبدأ التكاثر في موسم الأمطار، حيث تترك السيول خلفها الرزق الوفير من الحشرات. وبشكل عام تكون الحضانة فترة واحدة في السنة الواحدة، وقد تكون أكثر من مرة عند وفرة الطعام. وربما يمر العام دون أن تكون هناك حضانة إذا ما قلّت القوارض التي تقتاتُ عليها.

أعشاشنا

يقوم الذكور بتوفير الغذاء للأمهات في فترة الحضانة، فتكتنز أجسامهن بالدهون لتكون أكثر قدرة على حماية فراخها من الأعداء، وفي الغالب لا نحتاج لبناء الأعشاش، إذ نختار الأشجار المناسبة أو الحُفَر التي تنتشر بين الصخور. وبينما يعمل أصدقاؤنا من

hiramagazine.com

بـوم الحقـل بحفر أعشاشـها في التـراب، تسـكن أنواعنا الصغيرة الأعشاشَ المهجورة لطيور نقار الخشب. وهنا يتجلى للناظر في كتـاب الكـون المنظور خاصيـة مثيرة للاهتمـام وهـي الرحمـة الإلهيـة المطلقـة: فبينمـا تأخـذ الفراخ في الأعشاش الآمنة وقتها في النمو، تنمو الفراخ في الأعشـاش الأقل أمانًا بشـكل أسـرع، حتى إنها تغادر تلـك الأعشـاش دون أن يتـم اكتسـاء أجسـامها بالريـش بعـدُ، وهـذا النمـو السـريـع يصونهـا من أن تكون فريسـة للأعـداء. وبعـد مضيّ بضعة أشـهر تحت رعاية الأبوين، تنطلـق الفـراخ أحـرارًا وتبـدأ تبحث عن غذائها بنفسـها. وبالتالـي فـإن معدل الوفيات عند الصغـار مرتفـع، إذ إن نسـبةً كبيرةً منها تموت خلال السـنة الأولى من عمرها، وبذلـك يتـم التـوازن السـكاني بيـن الأحيـاء. تتـراوح أعمارنـا مـا بيـن ٤-٥ سـنوات، كمـا يندر مَـن يعيش ١٥ سـنة، وقـد سُـجِّلت حيـاة بعض الأنـواع الكبيـرة منّا ٦٨ سنة في المحميات.

يعيـش معظمنـا مـع أزواجهم فـي مواطنهـم من غير هجـرة، وعندمـا يشـح الغـذاء نغير نمـط غذائنـا دون أن نغيـر أماكـن إقامتنا، فنهجـر ما اعتدنا عليه من الغذاء إلى غذاء وفير آخر. وقد يهاجر القليل منّا في رحلة الشـمال والجنـوب؛ فالبـوم القـزم (otus scopus) يتجـه نحو جنوب أوربا ليقضي فيها فصل الصيف وليؤدي وظيفته في تأمين التوازن السـكاني للحشـرات الكبيرة. وبوم المسـتنقعات (asio flammeus) لا يُعرف له موطن، إذ إنه في ترحال دائم يبحث عن المواطن التي يكثر فيها الطعام، كما أن ذكور هـذا النـوع من البوم وأمثاله من البـوم المتنقل، لا يعيش مـع أزواجـه مـن الإنـاث في حياة أسـرية إلا في موسـم التكاثـر. أمـا بوم الجبال فيرتقـي قمم الجبال في الصيف ويرتحل إلى الوديان في الشتاء.

أبجدية صوتية خاصة

فـي سـكنات الليـل نسـتخدم أبجديـة صوتيـة خاصة من أجل التواصل فيما بيننا على مسـافات بعيدة، ومن أجل الصيد كذلك. أما أنواعنا التي تصطاد في النهار فتستخدم أصواتًـا ضعيفـة خفيفـة. وعليه فإن زوج البومة النسـارية تَعـرف أصـوات بعضهـا البعض من مسـافة ٤ كلم. نعم،

نحن -معشـر البوم- نواصل العلاقة فيما بيننا عن طريق هـذه الأبجديـات الصوتيـة، إذ نعبّـر عـن كل حالـة مـن أحوالنا بصوت خاص؛ فنُخيف منافسينا بصوت خاص، وننـذر أعداءنـا بصـوت خـاص، ونبحـث عـن أزواجنـا، ونتواصـل فيمـا بيننـا بأصـوات خاصـة متمايـزة. وبهـذه الأصوات المختلفة تتمايز بسـهولة الأنواع المختلفة من البـوم. فالأنـواع المختلفة التي تعيش فـي أماكن مختلفة تملك طبقات صوتية خاصة تميزها عن الأنواع الأخرى؛ ففـي الولايـات المتحـدة الأمريكية كان يعـرف منا ١٢٣ نوعًـا، وارتفـع هذا العـدد في عام ٢٠٠٠ إلى ١٨٩ نوعًا بعـد تصنيـف الأصـوات لدينا، حيث تبيَّـن بعد التصنيف الصوتـي هـذا، أن هناك اختلافات كثيرة بين أنواعنا رغم التشابه في مظاهرنا الخارجية.

حواس عجيبة

نملك -نحن معشر البوم- جهازًا على شكل دائرة يتكون مـن الريـش الموجـودة حول عيوننـا. هذا الجهـاز يؤدي مهمـة اللاّقـط الهوائـي، يجمـع الأصوات ويعكسـها إلى آذاننـا. عيوننـا أكبر من عيون سـائر الطيـور، وفتحة آذاننا واسـعة كذلك. ثم إن بؤبؤة عيوننا الواسـعة تسـاعد على

hiramagazine.com

نفوذ كمية كبيرة من الضوء إلى شبكة عيوننا. وإذا ما قِسنا عين البومة الصمْعاء بعين الحمام، نجد أن عين البومة الصمعاء تستقبل الضوء أكثر من الحمام بمئة ضعف، الأمر الذي يوفر لنا الصيد والتحرك في الليل دون أي عائق، بينما الحمام يضطر إلى انتظار ضوء الصبح. لقد أنعم علينا صانع الكون والكائنات عيونًا على شكل أنبوب تعمل كالمنظار، وزودها بقَرْنية وعدسة مثاليتين، كما أحاط هذه العيون بعظام دائرية رقيقة تأمينًا لعملها المنظاري، وهاتان العينان الأماميتان تعملان كالمجهر، وتنظران إلى الكائن من زوايا مختلفة وبمعايرة دقيقة للمسافات، مما يوفّر للبومة الرؤية الثلاثية الأبعاد. إلا أن الشكل الأمامي للعينين يجعل مساحة الرؤية ضيقة، فإذا كانت زاوية الرؤية عندكم ١٨٠٠ درجة، وعند الحمام ٣٤٠٠ درجة، فإنها تضيق عندنا إلى ١١٠٠ درجة. فقد وهب خالقي بقدرته العظيمة وعلمه المحيط كل مخلوق ما يحتاجه بلا إسراف ولا نقصان، فوهب لفقرات رقبتي قدرة على الحركة أستطيع بها تحريك رأسي نحو الخلف لأرى كل الجهات بكل سهولة، فتصبح زاوية الرؤية ٣٦٠ درجة.

ولابد لي هنا من أن أصحح اعتقادًا خاطئًا عني. نعم، لعلكم تظنون أني لا أرى في النهار، الأمر ليس كذلك، فأنا أرى في النهار كما يرى الحمام، إلا أن قدرتي على الرؤية في الليل والظلام تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف على رؤيتكم أنتم، ودليلي على ما أقول هم أشقائي من بوم الثلج الذين يعيشون في القطب الشمالي الذي يمتد نهاره ستة شهور وليله ستة شهور، إذ يقضون أيامهم بلا عناء ولا مشقة ويتمتعون بأبصارهم في ليله ونهاره الطويلين.

أما السبب في قدرتي الكبيرة على الصيد في الليل، فإنه يعود إلى التناغم الكبير بين السمع والبصر، فآذاننا حساسة للأصوات ذات الترددات العالية، إذ أسمع حفيف أوراق الشجر، وأميز في حلكة الليل صوت القوارض المتنقلة من جُحْر إلى آخر وأحدّد مواقعها بدقة ثم أنقض عليها لأصطادها. وعليه فإن وجهي الدائري مع اصطفاف ريش رأسي على شكل إكليل، هو عنصر مهم من نظام السمع لديّ؛ إذ أمواج الصوت التي تنعكس عن وجهي، تتوجه نحو الأذن عبر هذه الريش. وبسبب بُعد المسافة بين الأذنين الداخليتين، مُنِحتُ القدرة على تثبيت مصدر الصوت بلا خطأٍ، فأتمكن من سماع الأصوات الأفقية بشكل حساس يفوق قدرة القط بأربع مرات. وعند التحليق يقوم دماغي تلقائيًّا بتقدير المسافات أفقيًّا وعموديًّا بخطأٍ لا يتجاوز الدرجة أو الدرجتين، وهذا لا يشكل عائقًا لقدرتي على الصيد أبدًا.

طائرات صامتة

هل تعتقدون أنه يكفيني تعيين موقع الفريسة فقط؟ لا.. إذن كيف سأضمن التقاط هذه الفريسة دون أن أترك لها فرصة للهروب؟ هنا يتجلى عليَّ الله تعالى باسمه المدبر؛ حيث منحني ريشًا خاصًّا كثيفًا، فبومة الغاب ذات الأذن الطويلة -مثلاً- يغطي جسمها عشرة آلاف ريشة ناعمة، فينخفض احتكاك الهواء المار من بين هذه الريش مانعًا صدور أيّ صوت. ولكن هذا الريش الناعم لم نره عند بومة الأسماك، والسبب في ذلك أن الأسماك تعيش تحت الماء وليس بإمكانها أن تسمع صوت احتكاك الأجنحة بالهواء. ومن حكمته تعالى أنْ كسَا سيقان بومة اليابسة بالريش لتحميها من عضّ القوارض، بينما سيقان بوم الأسماك ملساء، والسبب أن الأسماك لا تعضّ.

أرجو أن لا أكون قد أطلتُ عليكم وأنا أحاول أن أثبت براءتي، وأتمنى أن لا تنظروا إلي بعد اليوم بوجه الشؤم، والسلام. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

hiramagazine.com

د. عبد الكريم عكيوي*

حماية البيئة.. عقيدة وسلوكٌ

إن حماية البيئة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي أولاً عقيدة تستقر في قلب المكلَّف، ثم عمل وتصرف يجري على السلوك ثانيًا. وإذا كان الإيمان اعتقادًا بالقلب وعملاً يجري على الجوارح، فالبيئة داخلة في هذه القاعدة. فحماية البيئة إيمان يستوطن القلب، وأفكار تستقر في الفكر ويصدقها العقل، وهي بعد ذلك فعل وسلوك وخُلق وعمل. ومعنى ذلك أن حماية البيئة من مقتضيات الإيمان، وأن صيانة الفضاء المخلوق من حولنا، من لوازم العقيدة الإسلامية ومن علامات كمال الإيمان. والسلوك المنسجم مع ضوابط حفظ البيئة وصيانة جمالها، من الخلق الجميل الذي يتجمل به المسلم في سلوكه وتصرفه اليومي. فإذا استقرت العقيدة السليمة في قلب العبد أثمر ذلك بالضرورة توجهًا نحو البيئة بالاحترام والتقدير، والمودة والتدبير السليم الرشيد. فالتربية البيئية تقوم على أصلين أحدهما عقدي معنوي هو الإيمان، والآخر عملي سلوكي هو الأخلاق. والأصل الثاني متفرع عن الأول ولازم عنه. ومعنى ذلك أن منهج التربية البيئية يكون بترسيخ قواعد إيمانية ثم تلقين قواعد السلوك.

الأصل العقدي لحماية البيئة

إن حماية البيئة يقوم على أصل ثابت، عنه تتفرع ثقافة البيئة، ومنه يستمد المكلف قوة معنوية تحمله على ممارسة تفاعل ذوقي وروحي مع البيئة من حوله. هذا

التفاعل الذوقي هو الذي يوجه الإنسان تلقائيًّا -بطيب نفس منه وبانجذاب روحي ومعنوي يجد حلاوته في قلبه- نحو تقدير البيئة من حوله وتقدير مكانتها وجمالها.

وأجزم أن قيام التربية البيئية على هذا الأصل هو ما ينفرد به الفكر الإسلامي. فاعتبار حماية البيئة من مقتضيات الإيمان ومن الممارسة العملية للعقيدة والإيمان مما لا يكاد يذكر على ألسنة دعاة حماية البيئة في العالم المعاصر، ولا تجد له أثرًا في الأعمال والمؤلفات والمؤتمرات والمواثيق التي تتعلق بالبيئة في العصر الحاضر. فغاية ما تقوم عليه ثقافة البيئة في العالم المعاصر، التخويف من آثار دمار البيئة، والتحذير من الخلل المحتمل في الحياة المادية والصحية والنفسية للإنسان. لقد أصبح الكلام حول البيئة تخويفًا وتهديدًا، وانحصرت التربية البيئية في التعريف بالمخاطر وتوقع المفاسد، ووضع القوانين الزجرية.

إن حماية البيئة في سياق روحي جمالي بعيدًا عن التخويف والتهديد، واعتبار ذلك من مقتضيات الإيمان التي تلزم المكلف وهو يمارس حياته ويعبر من خلالها عن صدق إيمانه وسلامة عقيدته، هو الأصل الذي ينبغي للمسلم أن يستحضره بقلبه ويعيه بعقله. وهذه هي ثقافة البيئة التي يحق للمسلمين -بعد استيعابها والتمكن منها وتقديم النموذج من أنفسهم- أن يقدموها للعالم المعاصر، ويفخروا بأنها إضافة نوعية وقيمة مضافة، بها يكتمل بناء الثقافة البيئية في العالم المعاصر.

إن العقيدة الإسلامية التي تقوم على الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، توجب على من يحملها في قلبه أن يقدّر البيئة ويحفظها. ومعنى ذلك أن استقرار هذه العقيدة في القلب يصاحبها بالضرورة ثقافة بيئية تلقائية. ومن علامات سلامة العقيدة وكمال الإيمان، تصرُّف العبد تجاه البيئة على قاعدة المحبة والتقدير والحفظ والصيانة. فالإيمان تصديق وقول وعمل. فبعد الإقرار بالقلب والاعتراف باللسان، يلزم المكلف أن يأتي بالأعمال وهي الفرائض والواجبات في مجال العبادات والمعاملات اليومية. وكل نقص أو خلل في هذه الأعمال فهو نقص من إيمانه. فلا يتصور مسلم سليم الإيمان يستجيز تخريب البيئة والتساهل في حفظها وصيانتها. وكل عمل من ذلك فهو إما فساد في العقيدة، أو جهل بمقتضياتها ولوازمها. ويمكن بيان ذلك من خلال مجموعةِ قواعدٍ كلها داخلة في الإيمان الذي يستقر في القلب، ولكن مصداقها يجري على الأفعال، وتجلياتها في الحياة العملية اليومية، فيكون حماية البيئة من تجليات الإيمان. وجماع هذه القواعد هي:

• **الكون كتاب مخلوق تتلى فيه آيات التوحيد، وتقرأ فيه علامات الجلال الإلهي، وتعرض فيه أمارات الكمال الرباني**: إن من يتدبر آي القرآن الكريم، يجد أن الله تعالى يمتن على عباده بما خلق وأبدع مما هو مبثوث في الكون العلوي والسفلي، مما يشاهَد ومما لا يشاهَد. وقد أقسم بذلك فقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾(الحاقة:٣٨-٣٩)، وقال ﷻ: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾(المعارج:٤٠)، وقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ

hiramagazine.com

اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤).

والمعنى المقصود من جميع هذه الآيات وما في معناها، أن الكون معرض للتعرف على الله تعالى وعلى وحدانيته وكماله وجلاله.

فالخلق علامة الخالق، والكون أمارة المكوِّن، والصنعة دليل الصانع. وعليه يكون الفضاء المحيط بالإنسان بجميع مظاهره وأجزائه -من أصغرها إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات وما بينهما من العوالم- معرضًا لتجليات التوحيد، أي معرفة وحدانية الله تعالى الخالق المدبر. فمعنى الوحدانية يتجلى في الكون في جميع أجزائه، ويظهر في كل لحظة من لحظات هذا الزمان المخلوق، وإن الوحدانية هي أسمى المعاني التي تستقر في قلب المؤمن، وإن نظره نظر العبرة في الفضاء من حوله يحرك فيه هذا المعنى الجميل للتوحيد. إن الكون يداعب قلب المؤمن ويحرك فيه أجمل المشاعر ويمنحه ألذ الأذواق، بما يريه من علامات الانسجام والتعاون بين أجزائه، وذلك يورثه اليقين بوحدانية ربه، والشعور بعناية خالقه به ورعايته له، وما أعظم أن يحس العبد بعناية ربه به وتعرفه إليه وتوده إليه. وهذا هو التفاعل الذوقي الوجداني مع الكون والبيئة الذي يورثه الإيمان في قلب المؤمن. فبهذا يتوجه العبد المؤمن إلى البيئة والكون توجُّهَ المعتبر القاصد وليس توجُّهَ العابث، فينظر إليه نظره إلى مواطن التعرف إلى الله تعالى ومعاينة آثار وحدانيته، ومشاهدة دلائل ربوبيته وجلاله، وارتشاف قبسات من سنى جماله ﷻ.

• **الكون معرض لتجليات أسماء الله الحسنى:** إن الكون والفضاء المحيط بالإنسان موجود لا يمكن إنكاره، وكذلك ما يجري فيه من الأفعال العظيمة، وما يحدث فيه من التصرفات الحكيمة التي هي بمثابة ألوان هذا الكون وزينته ونوره وجماله. وهذه الأفعال العظيمة والتصرفات الحكيمة المشاهدة بعين اليقين، لتدل بعلم اليقين على صفات خالق هذا الكون وتُعرف بأسمائه. فالحقائق الجارية في الكون هي الحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة وغيرها من الحقائق والأفعال العظيمة الجميلة. ومن يشاهد هذه

لحماية البيئة في الفكر الإسلامي أصلان عليهما تقوم، وهما الأصل العقدي، والأصل الخلقي، لأن العقيدة الإسلامية توجب احترام البيئة، والأخلاق الإسلامية تحتّم حُسن التعامل مع العالم الخارجي ومنه البيئة بجميع مظاهرها.

حراء

الأفعال ويقر بها، لا يمكنه أن ينكر فاعل تلك الأفعال، وهو الخالق، الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل. ومعنى هذا أن الكون يدل على أسماء الله الحسنى مثل دلالة ضوء النهار على الشمس. فبمقتضى الإيمان ينظر العبد بعين التحسين والتقدير لكل المخلوقات من حوله، لأنه يرى فيها ومن خلالها قبسات من جمال الله تعالى، وعلامة من علامات جلاله. ومعنى ذلك أن الكون معرض لتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العلا. ففيه يتجلى مثلاً جمال أسماء الله تعالى الخالق، البارئ، المصور، المحيي، المميت، الرزاق. فلا يمكن لمن ينظر بهذا المنظار أن يدنّس ما جمّل الله من مخلوقاته أو يشوّه منظر ما أبدع خالقه لأنه يعرفه بصفات ربه وأسمائه، فيستحيي أن يفسد جمال شجر أو نبات أو ماء، لأنه يرى فيه فعل الخلق والتحسين والتجميل من الخالق الجميل العظيم.

• **تقدير الصانع بتقدير الصنعة:** إن الكون -من منظور الإيمان- هدية ربانية ومنحة إلهية. فما من شيء يقع عليه نظر العبد من حوله، إلا هو من صنع الخالق البارئ المصور الذي أحسن كل شيء خلقه. وعليه يتوجه العبد إلى ربه بالمحبة لما يرى من نعمته عليه وفضله بما خلق وأبدع. ومن لوازم محبة الخالق ﷻ وتقديره، العناية بخلقه وتقدير صنعته.

• **الكون مخلوق طاهر مزين:** لقد خلق الله تعالى الكون على أجمل صورة وأحسن هيئة، مزيَّنًا طاهرًا كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾(الملك:٥)، وقال عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾(ق:٦-١١). وإذا استحضر العبد أن الله تعالى خلق الكون طاهرًا وجعله مزيَّنًا، استحيا أن ينجّس ما طهّر الله تعالى. ومن عرف أن البيئة من حوله هدية جميلة مزينة من الله تعالى هو الذي أبدعها ومنحها بهجتها، فكيف يستجيز لنفسه تغيير خلق الله وإفساد جماله وتدنيس بهجته!؟ وقد حذر الله تعالى من ذلك فقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١)؛ فحذر الله تعالى الناس من فساد البيئة من حولهم، وأن ذلك إنما هو بفعل الإنسان.

• **شكر المنعم بشكر النعمة:** ومن مقتضيات الإيمان أيضًا، أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان وينتفع منها، نعمة من الله تعالى. والنعمة تقتضي الشكر، ومن شكر نعمة البيئة رعايتها وصيانة جمالها. فمن أفسد البيئة فقد كفر نعمة الله تعالى عليه. فهذه كلها قواعد يستلزمها الإيمان عندما يستقر في القلب. فمن آمن بقلبه توجه إلى البيئة من حوله بالتقدير والحفظ والصيانة، لأنه يرى فيها معرضًا لمعرفة ربه تعالى ومعرفة جلاله وجماله ووحدانيته وأسمائه وصفاته، ويرى فيها هدية إلهية ومنحة من ربه له فينظر إليها بعين التقدير والاحترام، ويستحيي أن يفسد ما جمّل الله، ويحذر أن يدنّس ما طهّر الله وزيّنه.

ولهذ كله جعل الرسول ﷺ حماية البيئة من شعب الإيمان فقال ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول "لا إله إلا الله" وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (رواه مسلم). فإماطة الأذى عن الطريق معناه كَفّ الضرر عن الفضاء العام. فبيّن ﷺ أن حفظ البيئة وصيانة الفضاء العام، من الممارسة العملية للإيمان. ومعنى ذلك أن الإيمان يحمل المؤمن على تقدير البيئة من حوله وحفظها، وعلى التخلق تجاهها. ولهذا فإن للبيئة أصلاً خُلُقيًّا يتفرع عن هذا الأصل العقدي الإيماني، لأن من رسخ هذا الاعتقاد في قلبه، ظهر حسن الخُلُق في سلوكه وتعامله مع البيئة من حوله.

الأصل الخلُقي لحماية البيئة

ومعنى الأصل الخلقي لحماية البيئة، وجود كثير من الأخلاق التي يتوجه بها المسلم إلى البيئة من حوله. فالأخلاق إنما هي آداب التصرف وقانون التعامل مع العالم الخارجي بجميع أجزائه من عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات وسائر مظاهر الفضاء الخارجي والبيئة المحيطة. فحُسن الخُلُق هو هندسة الجمال في السلوك البشري، وهو الجمال الحقيقي الذي يتزين به الإنسان قبل جمال الصورة والمظهر. وحُسن الخُلُق هو جمال السلوك مع العالم، والعالم هو كل ما سِوى الله تعالى وهو جميع المخلوقات. ولهذا فإن حماية البيئة من منظور الفكر الإسلامي، يقوم على اكتساب سلوك التعامل مع الفضاء الخارجي. ولهذا نجد في السنة النبوية -القولية والعملية- قواعد للتخلق مع البيئة وأصولاً للسلوك مع البيئة بجميع مظاهرها. والأحاديث النبوية في ذلك كثيرة، وخلاصتها وجوب النظر إلى البيئة بنظر التقدير والاحترام، والتوجه إليها بالصيانة والرعاية، والحذر من إفساد خيراتها وتشويه رونقها وتغيير جمالها. وننقل بعض الشواهد الدالة على ذلك.

من ذلك حِرْص الرسول ﷺ على الغرس والزرع، حتى يتجدد جمال البيئة ويحفظ رونقها ويمتد نفعها. عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة" (رواه البخاري)، وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" (رواه الإمام أحمد).

وكان ﷺ يحذر من قطع الشجر ونحوه من الخيرات والثروات البيئية، من ذلك قوله ﷺ: "من قطع سدرة صوَّب الله رأسَه في النار" (رواه أبو داود)، وحذر ﷺ من تنجيس الفضاء العام ووجوب حفظه وتطهيره، فنهى عن التبول أو التغوط في الطرق والماء وتحت الأشجار وفي الأماكن العامة التي يرتادها الناس، وبيّن أن ذلك قبح ومعصية تستوجب لعنة الله تعالى، وذلك بقوله ﷺ: "اتقوا الملاعن الثلاثة البراز في الموارد وقارعة الطريق والظّل" (رواه أبو داود).

hiramagazine.com

وحث على إزالة الأذى عن الطريق، وأنه من الطاعات التي يستحق فاعلها الأجر والثواب والمغفرة. قال ﷺ: "بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له" (رواه البخاري)، وقال: "وتميط الأذى عن الطريق صدقة" (رواه مسلم)، وأمر ﷺ برعاية الكائنات الحية والحيوانات، ونهى عن تعذيبها وإهمالها. يكفي من ذلك إخباره ﷺ أن امرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها، فلم تطعمها ولا هي تركتها حرة تأكل من خشاش الأرض، وأن رجلاً دخل الجنة بسبب كلب عطشان فسقاه.

والأحاديث في هذا المجال كثيرة جدًّا، وخلاصتها أن من خلُق المسلم احترام البيئة من حوله، ورعايتها، والإسهام في حمايتها وتجديد رونقها، والنظر بالرحمة إلى الكائنات... فهذا كله من أخلاق الإسلام ومن صفات المسلم. فيتأكد من هذا أن لحماية البيئة أصلاً خلُقيًّا، وأن التعامل الحَسَن مع البيئة من أخلاق المسلم التي يحصل نفعها في الدنيا لعامة الناس بحفظ البيئة وصيانتها، وفي الآخرة بالأجر والثواب والمغفرة.

إن العقيدة الإسلامية التي تقوم على الإيمان بالله تعالى ووحدانيته، واتصافه بصفات الكمال والجلال والجمال، وأن الكون بكل ما فيه وما يحدث فيه، من خلقه تعالى وتدبيره. هذه العقيدة تقتضي ممن يحملها في قلبه، أن ينظر بعين التقدير والاحترام إلى البيئة من حوله، لأنها من خلق الله، ومن نعمته ومنحته، تذكره بربه وتعرّفه بكماله وجلاله وجماله. فبذلك يتوجه إلى البيئة بالمحبة، ويمارس معها تفاعلاً ذوقيًّا، فيكون خُلقه حسنًا مع البيئة من حوله. فلحماية البيئة في الفكر الإسلامي أصلان عليهما تقوم، وهما الأصل العقدي، والأصل الخلقي، لأن العقيدة الإسلامية توجب احترام البيئة، والأخلاق الإسلامية تحتّم حُسن التعامل مع العالم الخارجي ومنه البيئة بجميع مظاهرها. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مخاطر الطريق

الطريق وعرة مسالكُها،
مخوفة منعطفاتها،
موحِشة شِعابها..
أغوالُها رهيبة، ووحوشها قَتَّالة..
فالتمسْ لنفْسك مولى،
عنه فَتِّشْ، وبه تَشَبَّثْ..
بعنايته يكلؤك،
وعن مخاطر الطريق يمنعك،
ويصحبك ويعينك ويساعدك ويُسندك.

* * *

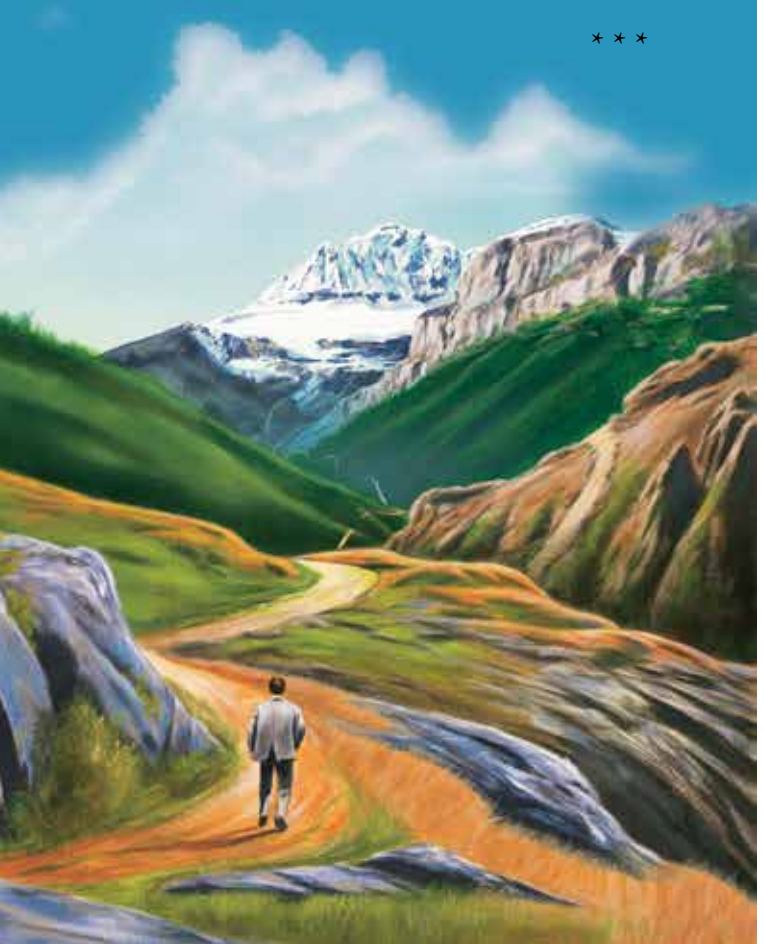

د. كريمة بوعمري*

أخطر أعدائك نفسك التي بين جنبيك.. احذر مما تنفخ فيك من اعتداد بالنفس، وتعاظم بالشعور؛ فتجعلك تحسب أنك المبرأ من كل عيب، والمطهر من كل ذنب، والآخرون وحدهم هم الذين تركبهم الأخطاء وتملأهم الذنوب.. لا تعتذر لنفسك، ولكن جدْ العذر للآخرين.

الموازين

الأفق التربوي في بناء الإنسان عند

الأستاذ فتح الله كولن

الأستاذ فتح الله كولن أحد أشهر علماء الإسلام المصلحين ودعاته المعاصرين. اختارته مجموعة من المجلات العالمية في طليعة قائمتها لمائة شخصية الأكثر تأثيرًا في العالم. أنشئت له كراسي أكاديمية ومراكز علمية متخصصة باسمه اعترافًا برؤيته الإنسانية وفلسفته الإصلاحية. كما انعقدت لدراسة نظرياته مؤتمرات وندوات دولية في جامعات عالمية، وخلصت هذه الدراسات إلى أن حركة الأستاذ هي أهم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، وأكثر الحركات الاجتماعية والمدنية تأثيرًا على العالم في القرن الواحد والعشرين. له أكثر من سبعين كتابًا تناول فيه القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي ومشكلات العصر، حيث

تُرجمت بعض كتبه من التركية إلى خمس وثلاثين لغة.

لقد تعمّق الأستاذ كولن في قراءة منظري الإصلاح في القرون الأخيرة، وتابع التيارات الإسلامية في البلدان الإسلامية، واستوعب النظريات الغربية الفلسفية والاجتماعية، فأدرك أن معاناة المجتمعات الإسلامية وعدم نهضتها ورقيها كونها حبيسة سجون ثلاثة؛ الجهل والفقر والتفرقة، فنذر حياته لإخراج الأمة من براثن الجهل، وذلك بالتركيز على التعليم كنقطة البدء في التغيير لذلك. سعى ودعا إلى بناء منظومة تربوية تعليمية متكاملة تتناغم فيها الجوانب المادية والعقلية بالجوانب الروحية والأخلاقية، فجعل مشكل التربية والتعليم ضمن مواعظه ومقالاته وخطبه، ويكاد يكون هو الشخص الوحيد الذي تناول في تركيا هذا الموضوع تناولاً حركيًا، وأوصله إلى الجماهير الواسعة[1]، مبرزًا أنه منذ أن أبعدت الفلسفات الوضعية نظم التعليم والتربية وجميع العلاقات الإنسانية والفكرية عن الدين وقيمه السامية، فإنها قد فتحت بذلك أبواب الأزمات الأخلاقية والانحرافات السلوكية داخل المجتمعات، مما أدى إلى انحطاطها وانهيارها، وبيّن ذلك في قوله: "إن رقيّ أيّ أمة وتقدّمها، مرتبط بمدى التربية التي يتلقّاها أفرادها من الناحية العاطفية والفكرية. فلا ينتظر تقدّم أمة لم تتوسع آفاق أفرادها الفكرية والوجدانية"[2]. فعمل بذلك على نشر هذه الرؤية المتكاملة للتعليم مستشهدًا بقوله آينشتاين: "العلم من غير دين أعرج، والدين من غير علم أعمى". فأنشأ بيوتًا للطلبة، وكانت بيوت علم وأخلاق وأجواء إيمانية تعمل على البناء الروحي للإنسان وفق برامج إعادة صياغة شخصية الطلبة، وكانت في الوقت ذاته صمام أمن الناس رغم اختلاف توجهاتهم، وذلك حماية لأبنائهم من الأيديولوجيات الماركسية التي انتشرت في مؤسسات التعليم.

بدأ التنافس في فتح هذه البيوت لما حققته من نجاح في بناء جيل جديد من الشباب التركي المؤمن بدينه، المحترِم لتاريخه وهويته، فكانت هذه البيوت فاتحة خير في إنشاء مدارس وجامعات داخل تركيا وخارجها،

إن الفلسفة الإصلاحية عند الأستاذ كولن تقوم على بناء روح الإنسان وصياغته صياغة ربانية تمس كل موْطن منه وتهزّ كل وتَر فيه لينخرط بكل كيانه وطاقاته في رفع البناء الذي أمره الله برفعه.

حيث توجد اليوم أكثر من ألفي مدرسة في تركيا وأكثر من ألف مدرسة خارج تركية منتشرة في مائة وستين دولة، كما توجد أكثر من عشرين جامعة متميزة في مختلف التخصصات.

إن هذه الرؤية الداعية إلى المزج بين الإيمان والعلم، تجسّدت على أرض الواقع في هذه المدارس التي بُنيت وفق أحدث التصاميم وبوسائل تعليم متقدمة تستخدم أحدث منجزات التكنولوجيا، ومناهج تعليمية تعمل على تغذية العقل وتنشيط المعرفة مع تربية النفس وزرع المُثل والقيم العليا. يشرف على هذه المدارس طاقم تدريس من خرّيجي هذه المدارس، أو بعض خريجي جامعات أخرى، لكنّهم آمنوا بالفكرة ونذروا أنفسهم لخدمتها. فتَجِدُهم يعملون ويتعاملون بحماس وعطاء وتواضع ولطف وصبر... لا يصدر إلا عن إنسان برهن عمليًا على مدى حاجة نظام التعليم إلى التضحية، مقتدين بصانع هذه التضحية الذي نذر نفسه لخدمة الإنسانية، فكان مشروعه مشروعًا إسلاميًا لكن بُعد كوني.

فهذه "مدرسة الفاتح"، نموذج لمؤسسة تعليمية متكاملة تضم جميع مراحل التعليم، هي آية في النظام والنظافة والهندسة المعمارية، ثلث التلاميذ الأتراك الذين يشاركون في المسابقات "الأولمبيات" العلمية العالمية هم من أبناء هذه المدرسة، التي تختار التلاميذ من خلال مباراة يشارك فيها الآلاف من الصفوة الأولى المتقدمة في الدراسة والتي أظهرت كفاءة عالية في استيعاب المواد العلمية.

وإذا كانت الخدمة الإيمانية نجحت بقيادة الأستاذ في إقامة شبكة من المدارس التي تغطي مختلف مراحل الدراسة بجميع التخصصات، فإن نجاحها الحقيقي

hiramagazine.com

يكمن في تفوّق طلاب هذه المدارس والجامعات وخريجيها، والفضل في ذلك يرجع لمدارس "فام" (FEM)؛ وهي مدارس تقوية ودعم تقدم خدمتها لخرّيجي المرحلة الثانوية في المدارس التركية، لتأهيلهم لاجتياز امتحان القبول في الجامعات التركية التي لا تقبل إلا عددًا معيّنًا من مجموع الطلاب خرّيجي المرحلة الثانوية، حيث يكون طلاب مدارس " فام" في طليعة المقبولين في الجامعات التركية. وهذا النجاح والتفوق هو ثمرة عمل تربوي تعليمي قوي يقوم على الإرشاد المدرسي، والتربية على القيم.

إن نجاح هذا المشروع التعليمي الإنساني جعل الناس تحتضنه في مختلف الجغرافيات وبلغات مختلفة، لأنه يحاول أن يُفعِّل في الحياة المعاصرة روح القيم الإسلامية. فمثلاً مدارس الفاتح في المغرب تعمل بنفس المناهج التعليمية المغربية، مع التركيز بدرجة كبيرة على تقديم رؤية قيمية، من خلال تقديم برامج تربوية موازية للمناهج الدراسية، وأنشطة مختلفة ورحلات ومخيمات تطوعية تركز دائمًا على القيم الأخلاقية والسلوكية مع الجودة في التعليم.

لقد بيّن الأستاذ فتح الله كولن أن سر مركزية التعليم في العمل الإصلاحي، هو دورانه على الإنسان معلّمًا ومتعلّمًا؛ ذلك أن المعلّم المنخرط في مهنته بروح التعبد الخالص، يستطيع أن يصنع من تلميذه إنسانًا جديدًا ينظر إلى مستقبل الأمة بعيون يملؤها الأمل وبقلب ينبض بالمحبة والسلام. ومن ثم فإن إصلاح الأجيال مرتهن بإصلاح التعليم وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت إلى سعة العمل الإنساني النبيل، ألا وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية. إن أول خطوة في مشروع الإصلاح، هي إنتاج الإنسان الذي فني عن نفسه في قضية أمّته وتعلّق قلبه بأشواق الآخرة ثم اتخذ مهمته التعليمية مسلكًا لمعرفة الله وعمارة الأرض[٣].

لقد انكبّ الأستاذ فتح الله كولن على هذا الصنف من البناء الروحي لهوية الإنسان من خلال إعادة ربط اتصاله بحبل النبوة والوحي المحمّدي، في تكامل مع مختلف البناءات التي يكتمل بها معمار الإنسان، والذي يصير بهم مفتاحًا لكل تقدّم حضاري آمن وسليم.

فمهما كانت خصائص الإنسان الوراثية البيولوجية والفيزيولوجية، فإنه يأخذ حظّه من الآثار التي تولدها التربية الروحية. لذلك كانت الفلسفة الإصلاحية عند الأستاذ كولن تقوم على بناء روح الإنسان وصياغته صياغة ربانية تمس كل مؤطن منه وتهزّ كل وتَر فيه، لينخرط بكل كيانه وطاقاته في رفع البناء الذي أمره الله برفعه.

إن هذه الفلسفة الإصلاحية تمتد جذورها وتستمد روحها من طبيعة التنشئة الربانية التي ترعرع في حضنها الأستاذ، ذلك أن هذه التنشئة جمعت بين العلم والتربية الروحية وسمو الهمة وفيض الطموح، مما أهّل الأستاذ لصياغة رؤية شمولية للإصلاح، محورها بناء الإنسان وأساسها العلم والتربية الروحية. وللوقوف على هذه الجذور يكفي أن نستحضر أن الأستاذ تربى في أحضان أسرة هيأت له الجو ليكون رجلاً رساليًا؛ لقد حفظ القرآن في سن مبكرة على يد أمّ ربانية صالحة ذات أخلاق قرآنية وهمة عالية كانت تُحفّظ القرآن لنساء القرية، صنعت من جيلها وجيل بناتها أمهات ربَّينَ جبالاً شوامخ وبيوتًا قواطع في معركة الزمان. وأبٌ فتح بيته للعلماء والصالحين مما أتاح للولد المبارك مجالستهم والاستماع إليهم والارتواء من معين علمهم، فاتسعت بذلك معارفه ومداركه، ومصاحبة شيخ جليل جمع بين مواجيد القلب وأذواق الروح، حيث تفتقت به مواهب فتح الله الروحية ونضجت مواهبه الإيمانية.

فتابع دراسته في العلوم الشرعية مع المواظبة على حضور مجالس الذكر، حيث تكونت له نظرة شمولية متوازنة حول مفهوم الإسلام شريعة وحقيقة. فكان في خطبه ومواعظه يخاطب عقول الناس وقلوبهم، ويغرس فيهم الإيمان بالله والتعلق به، ويُحبّب إليهم الرسول الأكرم ﷺ وصحابته الكرام ﷺ ويدعوهم إلى الاقتداء به ﷺ... فكان يؤسس للأجيال من خلال استدلالات قرآنية وسنة نبوية وقياسات أصولية وإجماع أمة، بأن قواعد

hiramagazine.com

الإسلام ومنظومته المعرفية ومناهجه التربوية تحث على تغذية الأرواح وبناء كمالها المعرفي وتحصينها في ضوء التعاليم الإلهية.

إن هذه الرؤية الكلية للإنسان في المنظور الإسلامي الشامل التي تأسست على الوحي القرآني الخاتم والهدي النبوي القائم، والتي تجعل من الإنسان موجودًا يتحمل أمانة الاستخلاف في هذا العالم، هي التي وعاها الأستاذ فتح الله ودعا إليها في فلسفته الإصلاحية وعبّر عنها بقوله: "إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذلك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقْبوي الغائر في الأعماق، ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معيّن أحيانًا فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يعبر عنه"[٤]، لذلك كان بناء الروح تربية إيمانية ارتقائية.

وهذا ما تجسد عمليًّا في أهل الخدمة، حيث تجد قلوبهم المخلصة في حيوية دائبة خدمةً للإنسانية، لأن تشبعهم الروحي والقلبي حوَّل إيقانهم ومعتقداتهم إلى جزء من طبيعتهم، فأصبح أفق وجدانهم معادلاً لمستواهم الإنساني، فكل واحد منهم يخدم المجتمع وفق قدراته وإمكانته. فهم يخرجون إلى مناطق بدائية محرومة من العديد من الحاجات العصرية، وإلى مناطق تحتدم فيها المعارك، وإلى مناطق تختلف حضارتها وعاداتها عنهم، يخرجون متوكلين على الله متسلّحين بالصبر والتضحية ونكران الذات، مستثمرين تلك التربية الروحية التي عملت على غرس الفضائل وبثِّ القيم وترسيخها في الجنان وتحويلها إلى سلوك وأعمال ومعاملات... تربية أهّلت أصحابها للتحقق ببطولة ربانية بلا نظير، بطولةٍ ما فتئ الأستاذ يستنهض الهمم لبلوغ أعلى ذراها عبر نداءات قلبية ووجدانية صادقة وشامخة هذه قطرة من يَمّها: "أيها البطل الذي نذر روحه للحقيقة! هذا هو القلق الذي ينبغي أن يمور في أحشائك مَورًا، ويهزّ كيانك هزًّا، كي لا تنقطع تجلّيات الرعاية الربانية. ومن ثم، كلما عظم النجاح الذي تم

إن إصلاح الأجيال مرتهن بإصلاح التعليم وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت إلى سعة العمل الإنساني النبيل، ألا وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية.

حراء

على يديك، بالغْ في نكران ذاتك، وأوغلْ في محو نفسك، وتذللْ أمام الله، وانكسرْ بين يديه، وأمعنْ في العبودية له... ذلك أحرى بك كي لا تنسحق تحت أثقال أنانيتك. اغرسْ هذه الفكرة في روحك، وثبّتها في قلبك حتى تصبح جزءًا من كيانك وبُعدًا من أبعاد طبيعتك. كان النبي ﷺ يبكي صباح مساء متضرعًا ويقول: "يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين". فإن اتخذت هذا الدعاء وِرْدًا لك، لا يفارق لسانك ولا قلبك، فقد وُقيتَ من الانسحاق تحت حوافر النفس الجموح"[٥].

ولضمان الثبات على هذا النهج الصحيح، لابد أن يجعل أهل الخدمة -كما يرى الأستاذ كولن- رِضى الله غايةَ الآمال، والأخلاق هي الزاد، والقرآن والسنة هما النور الموصل إلى الهدف. هذا هو الشيء الذي أكسَب هذه الرسالة بُعدًا كونيًّا فوجدت الفكرة احتضانًا في مختلف البيئات والمجتمعات الإسلامية، كما أنها عرفت تجلياتها نوعًا من الازدهار والإبداع في مختلف مظاهر الحياة، وهو ما يُخرج الأستاذ إلى فضاء أرحب يجعله واحدًا من المجدّدين في عصرنا الراهن. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط / المغرب.

الهوامش

(١) انظر: فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ص:٢٩١.

(٢) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٨٨.

(٣) مقتطف من الرسالة التي وجهها الأستاذ فتح الله كولن إلى مؤتمر "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي" الذي انعقد بالقاهرة سنة ٢٠٠٩م.

(٤) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٣٣.

(٥) محو الذات، فتح الله كولن (مجلة حراء، العدد: ٢٤/مايو-يونيو ٢٠١١).

د. محمد بن إبراهيم السعيدي*

التوازن الفكري

ما أعنيه بـ"التوازن" هو الابتناء على المعطيات الصحيحة -في نظري- لتكوين الأفكار. والاتزان لا يعني صواب الفكرة، بل صواب طريقة التفكير، فإن من مفارقات الفكر، أن سلوك طريق واحدة فيه لا يؤدي بالضرورة إلى نتيجة واحدة.

وقبل الاستغراق في هذا المعنى، يحسن أن أبدأ في ذكر مفهومين للفكر؛ فإننا حين نستعرض كشافات الاصطلاحات العلمية القديمة، نجد الناس بين عالِم ومتعلِّم وجاهل، وربما وُجد في بعض الأوساط مصطلح المتكلم والفيلسوف. وفي العصر الحديث وُجد مصطلحان ليس لهما وجود -حسب علمي- في تراثنا القديم، وهما الثقافة والفكر، ويأتي منهما المثقف والمفكر، ويحار الناس كثيرًا في تحديد معناهما، ومن ثم يحارون في مواضع إطلاقهما.

وحديثنا عن الفكر خاصة، فالذي يظهر لي، أن أكثر مَن يتعاطى هذا المصطلح في ثقافتنا العربية المعاصرة، يريدون به "التصور الإجمالي والتفصيلي لواقع ما، من حيث كنهه، وعوامل تكوينه، ومآلاته، وطرق تحسينه، وعلاج آفاته"، وتقييد التصور بالإجمالي والتفصيلي ليشمل الإدراك بنوعَيه عند المَناطقة الذين يقسمون الإدراك إلى تصور وهو الإدراك المتجرد عن الحكم، وتصديق وهو الإدراك المتضمن للحكم.

والواقع، يشمل الواقع الديني، والسياسي، والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي لمجتمع ما، فكلّ تصور لهذا الواقع في أي جزئية من جزئياته يعدّ فكرًا، ولهذا يمكن القول إن الفكر بهذا المفهوم مشاع بين الناس. فكل إنسان لديه تصور لما يحيط به مما ذكرنا، لكن الناس يختلفون في مكانة تصوراتهم باختلاف درجاتهم، من حيث حصولهم على المعلومة، ونوعية تعلّمهم، وبصيرتهم إلى غير ذلك من الفروق الفردية بينهم.

وهذا الفهم لمعنى الفكر يتوافق إلى حد كبير ومفهومَ علماء النفس الاجتماعي للرأي العام. وعليه يمكن القول إن الفكر يساوي في كثير من مظاهره، ما يسميه علماء النفس الاجتماعي وخبراء الإعلام بـ"الرأي العام". وإن كان ثمة فرق بين الأمرين، فهو أن الرأي العام قد يتضمن قضية تفرض على المجتمع إعلاميًّا أو سياسيًّا، وليست في الحقيقة من صميم اهتماماته، وربما لا تكون ضمن الأمور المؤثرة في حياته العادية. لكن وسائل الإعلام قد يكون لها مصلحة في فرضها على المجتمع، وهذا ما يحاول قادة الفكر دائمًا النأي بالمجتمع عنه، وذلك كي لا تكون بانفعالات الأمة خادمة لأصحاب المصالح الخاصة.

وثمة فرق آخر بين الرأي العام والفكر، وهو أن الأخير يُراد به تصورات نخبة معينة من المثقفين، أما الرأي العام، فالكل يشارك في تكوينه، وهذا الفرق قد لا يكون دقيقًا، بل قد يكون غير مسلَّم به، لأنه يحتاج إلى ضبط المراد بهؤلاء النخبة التي تستحق أن تستأثر بتسمية إنتاجها الذهني فكرًا، مع أن البشر -بشكلٍ عام- لديهم نزعة فطرية نحو الحق؛ بمعنى أن الجميع يريد الحق فيما يعرض له من قضايا، ولا فرق في ذلك بين النخبة وغيرهم، بل قد تكون النخبة أقل ميلاً إلى الحق من عامة الناس، باعتبار أنهم أكثر تعرّضًا للهوى الفكري والانتماء المدرسي من غيرهم. أما من سواهم، فإن لديهم تسليمًا لا شعوريًّا، بأنهم لا يمتلكون أدوات معرفة الحق في القضايا المتعلقة بالتصورات التفصيلية للواقع، ومن ثم الحكم من خلالها، وذلك لأن مصدر المعرفة المتفق عليه، هو الحس أو ما يقوم مقامه. فلما كان الحس متعذّرًا في الغالبية الساحقة من قضايا الحياة العامة إلا على أناس محدودين جدًّا، فإن الغالبية الساحقة يعطون ثقتهم لمن يتصورون أنه قد وصل إلى المعلومة بطريق الحس أو بأقرب الطرق إلى الحس، وأن هذا الموثوق صادق معه إما لملازمته لصفة الصدق، أو لأنه صاحب مصلحة في الصدق، ولعل قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٢١) يصدِّق هذه الفكرة، فالناس بشكل عام ليس لديهم أدوات العلم

"التوازن" هو الابتناء على المعطيات الصحيحة لتكوين الأفكار. والاتزان لا يعني صواب الفكرة، بل صواب طريقة التفكير، فإن من مفارقات الفكر، أن سلوك طريق واحدة فيه لا يؤدي بالضرورة إلى نتيجة واحدة.

-بمعنى القطع والتحقق- مما يسعون إلى التحقق منه.

ولهذا نجد أن إقبال الناس على القيادات الفكرية إقبالاً طبعيًّا، لا يحتاجون إلى مَن يدلهم عليه، بل ربما صح القول بأنه فطرة. فالناس إذا لم يجدوا أمامهم مؤهلاً لقيادتهم فكريًّا، صنعوا لهم قائدًا على مواصفاتهم الخاصة، ولعل هذا هو معنى قول الرسول ﷺ: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكنْ يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالمًا اتخذ الناسُ رؤوسًا جهّالاً، فسئلوا فأفتَوا بغير علمٍ فضلّوا وأضلّوا" (رواه البخاري).

ولك أن تتأمل في قوله ﷺ: "اتخذ الناس"؛ فالناس إذا لم يكن المؤهل لقيادتهم فكريًّا أمامهم، اتخذوا من تلقاء أنفسهم قائدًا فكريًّا ولو لم يكن مؤهلاً. والناس يعرفون الموهوب والذكي، ومَن يملك القدرات الثقافية والخطابية التي تمكّنه من التأثير وجذب الأتباع، لكن ليس كل مَن يستطيع تكوين قاعدة جماهيرية بهذه الصفات هو الأمثل حتمًا لقيادة الأمة فكريًّا.

آليات التوازن الفكري

وأعود هنا للحديث عن قولي السابق: ومن مفارقات الفكر أن سلوك طريق واحدة فيه -ولو كانت صحيحة- لا يؤدي بالضرورة إلى نتيجة واحدة، وهي مشكلة فلسفية قديمة أدت بكثير من الفلاسفة إلى القول بتعدد الحق، نظرًا لعجزهم عن تفسير اختلاف الآراء في القضية الواحدة مع اتحاد منهج البحث فيها.

وهم يعنون بالحق المتعدد؛ تلك النتائج المختلفة التي يصل إليها المفكرون عند استخدامهم الآلة الصحيحة لبلوغ الحق، وهي التي يسميها علماء أصول الفقه "أدوات الاجتهاد"، والتي بَنوا عليها قضيتهم الشهيرة: هل كل مجتهد مصيب؟ أم المصيب واحد وغيره معذور؟ حيث لا يعنون بالمصيب والمعذور مَن

hiramagazine.com

يتسوَّرون على المسائل ويعطون فيها أحكامًا دون أن يكون طريقهم لذلك الآلة الصحيحة للاجتهاد.

ورأي الأصوليين وإن كان سياقهم له في قضايا الفروع الفقهية التي يسوّغ فيها الاجتهاد، إلا أن القاعدة صحيحة يمكن أن تنقل إلى جميع فروع الفكر الذي قدّمتُ تعريفه بأنه التصور الإجمالي والتفصيلي لواقع ما، من حيث كنهُه، وعوامل تكوينه، ومآلاته، وطرق تحسينه، وعلاج آفاته.

وعندما قسّم العلماء الإدراك إلى تصور وتصديق، فإنهم أردوا بذلك أن مَن لا يملك التصورات الصحيحة لا يمكن أن يصل إلى التصديقات الصائبة، وامتلاك التصورات الصحيحة هي في الحقيقة أدوات الاجتهاد في مسألة من مسائل الفكر.

وأخلُص من هذا إلى أن أول مقوِّم من مقومات التوازن الفكري، هو امتلاك التصورات الصحيحة عن كل قضية يُراد الحكم عليها سلبًا أو إيجابًا. والتصور إما أن يكون تصورًا أوليًّا ساذجًا كتصور الصور من جبال وأنهار وصحارى، أو تصورًا معقدًا وهو تصور المعاني كالحق والصدق والصواب والخطأ، وتصور المغيَّبات كالجن والملائكة، وكل صنفٍ من هذه التصورات يحتاج إلى جهد لامتلاكِه يختلف عن الجهد المراد للصنف الآخر. فحين أتصور الناقة لا أحتاج إلى مجهود ذهني كبير، لأنه بمجرد طروء الاسم على الخاطر، تنتج صورة مطابقة لوجود مثيلاتها في الذاكرة. أما حين أتصور حيوان الباندا، فأحتاج إلى مجهود ذهني أكبر لعدم وجود رصيد مطابق في الذاكرة، وربما لا أصِل إلى الصورة الصحيحة، وأحتاج في الوصول إليها إلى البحث عن صور مطابقة، ومع ذلك فإن المجهود الذي يبذله الذهن في تصور الباندا، أقل بكثير من المجهود الذي يبذله لتصور الروح والملائكة والحق والخطأ والصواب.

تأتي مشكلة التوازن الفكري حين يتعامل الذهن مع التصورات المعقدة بالطريقة نفسها التي يتعامل بها مع التصورات الساذجة، فيبذل في كليهما مجهودًا ذهنيًّا متساويًا، عند ذلك ستكون تصوراته في الأمور المركبة تصورات ساذجة.

إذن فالحصول على تصورات صحيحة هي أولى معطيات التوازن الفكري، لأن التصورات هي مفردات التفكير كما أن الحروف هي مفردات اللغة. وربما أن التعبير لا يمكن أن يكون صحيحًا بغير حروفه الموضوعة له، فالفكر لا يمكن أن يكون مستقيمًا دون تصورات صحيحة. والحصول على التصور الصحيح هو مسؤولية المفكر نفسه، وأيضًا مسؤولية المستهلك نفسه، والقيام بها -المسؤولية المنوطة- يحتاج إلى جهد يتوانى الكثير ممن يمارسون الكتابة في القضايا الفكرية عن تحصيله. وكذلك المستهلكون للفكر، فلم يعدْ لديهم الجَلَد حتى على تحليل الأفكار إلى تصوراتها الأولية لفحصها. فجمع التصورات عند كثير من الكتاب أو فحصها عند نسبة أكبر من المستهلكين، يتم بطريقة متقاربة في كل القضايا التي يتطرقون إليها.

بعد جمع التصورات، تأتي مرحلة إحداث النسبة بينها لتكوين ما يسميه المناطقة بـ"التصديق" وهو -كما قدمت- الإدراك المتضمن للحكم. فالتصديق هو نسبة التصورات إلى بعضها؛ فبعد أن أتصور القطب الشمالي، وأتصور معنى التجمد، وأتصور معنى تمركز الشمس وانحرافها، أحكم على القطب الشمالي بأنه متجمد. فقولنا: القطب متجمد، تصديق مبنيّ على عدد من التصورات أدت النسبة الصحيحة لبعض إلى البعض الآخر إلى هذه النتيجة.

والأفكار الكلية أو الجزئية هي مجموعة من التصديقات، يجري العقل النسبة بينها لتكون الفكرة. وبذلك يمكن مناقشة كل فكرة من خلال نقد التصورات الأولية التي بنيت عليها، أو نقد أي من التصديقات المؤسسة لها، أو نقد النسبة بين التصديقات المكوّنة لها.

وكلما كانت التصورات ناشئة من مصادر صحيحة للتصور، كانت أكثر مناعة عند النقد. وكذلك النسبة بينها أو النسبة بين التصديقات تعتمد مناعتها على مدى صحة نسبة بعضها إلى بعض، أو ترتب بعضها على بعض.

مصادر التصورات

١-الحس: مصدر مقر من مصادر التصور، والتصورات الناشئة عن الحس هي أقوى التصورات على الإطلاق،

hiramagazine.com

ولذلك كان استخدام القرآن الكريم للتصورات الحسية كثيرًا -كمقدمات صغرى وكبرى- للوصول إلى نتائج عقلية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:١٧-٢٠)؛ فالإبل وخلقها، والسماء ورفعها، والجبال ونصبها، والأرض وتسطيحها، كلها تصورات مصدرها الحس، ولم يمنع ذلك أن تكون النسبة العقلية بينها طريقًا للوصول إلى نتيجة غيبية.

إلا أن الحس يبقى عاجزًا عن رصد كثير من التصورات التي يحتاج الإنسان إلى الحكم عليها لحياته العامة الاجتماعية، أو لتسيير حركته العلمية، أو البرهنة على قناعاته الدينية. وهذا العجز حاول القدماء التخلص منه بطرق منها؛ اعتبار التواتر المعنوي قائمًا مقام الحس كتصور المدن النائية، أو الشخوص التاريخية القديمة، وهو حل لم ينكره القرآن بل أقره، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(العنكبوت:٣٨).

فالأمم السابقة -كعاد وثمود- كانت معروفة عند العرب بطريق التواتر المعنوي، وأقر الله هذه المعرفة وبنى سبحانه وتعالى خطابه عليها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾(السجدة:٢٦).

٢-الفطرة: وهي وإن كانت التصورات المنبعثة عنها أقل بكثير مما ينتج عن المصادر الأخرى، إلا أنها تدل على أعظم مدلول وهو الله، كما تدل على نسبة الخلق إليه ﷻ ونفي الشريك عنه، فهي تدل على الله تعالى تصورًا وتصديقًا، وهذا مدلول قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢). أما ما سوى ذلك من مدلولات، فمن الفلاسفة المثبتين للفطرة مَن يثبتها، ومنهم مَن ينكرها.

٣-الوحي: وهو مصدر يكاد يكون وحيدًا لتصورات مفردات عالم الغيب، كالملائكة، والجن والشياطين، والجنة، والنار، والحوض، والصراط، ونعيم القبر وعذابه، وبذلك يكون مصدرًا وحيدًا أيضًا لما يتعلق بها من تصديقات. وهو أيضًا مصدر وحيد لتصور مفردات الدين، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وهو أيضًا مصدر وحيد للتصديقات الناشئة عن نسبتها إلى بعضها.

٤-خبر الموثوق: وهو مصدر صحيح للتصورات، شريطة أن يكون الموثوق منطلقًا في نقله عن أحد مصادر التصور الصحيحة المتقدمة.

ومن الطبيعي أن نسأل عن القعل؛ أليس هو أيضًا مصدرًا من مصادر التصورات؟ والجواب؛ قد يتبادر إلى الذهن أن التصور هو عملية عقلية صرفة، وهذا حق، لكن التصورات موجودة في الخارج، والتعرف عليها يتم بالطرق الأربع المتقدمة، وليس للعقل قدرة على استحداث تصورات من تلقاء نفسه، وإنما هو ذاكرة لتلك التصورات التي يتعرف عليها العقل بطريق الحس، أو الوحي، أو الخبر المتواتر، أو خبر الموثوق.

نعم، إن بمقدوره تكوين الصورة بطريق التذكر، أو بطريق التركيب، أو بطريق الانتزاع والتخيل. بل إن العقل هو الوسيلة الأولى للربط بين المتصورات لإحداث النسبة التي ينتج عنها التصديق، كما أنه الفاعل الأقوى أيضًا في الربط بين التصديقات للحصول على الفكرة أو مجموعة الأفكار.

كل ذلك صحيح، لكنه لا يعني أنه مصدر من مصادر التصور، بل هو الآلة الوحيدة لحفظها والتحكم فيها.

ومن أسباب الاضطراب الفكري اعتبار العقل مصدرًا للتصورات، فإننا نجد أن هناك فئة تقيم تصديقاتها على تصوراتٍ مصدرها العقل، والحقيقة أن كل تصور مصدره العقل، ليس له وجود خارجي حقيقي، فهو إما متخيل وإما موهوم. وبما أن التصديقات -ومن ثم الأفكار- تعد التصورات هي لبناتها، فإن كل تصديق مبني على تصور موهوم أو متخيل لا يمكن أن ينتج عنها أفكار متزنة. ■

(*) أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

لا تصحّ قراراتك ما لم تكن صاحب منطق، ولا منطق بغير عقل، ولا عقل بلا علم وعرفان، فمتى ما رأيتَ عقلاً عاطلاً، ومنطقًا خادعًا، وقرارات مخطئة، فاعلم أنك بإزاء إنسان غارق بجهالته، سادر في غفلته.

الموازين

مقاصد الشريعة بمذاق الفنون الجميلة

ا

الجمال والإسلام صنوان لا يفترقان. الإسلام دين السلام والخير والرحمة، والجمال علامة السلام والخير والرحمة. ولهذا فإن الفنون الجميلة بمختلف ألوانها ذات وشائج قوية وعميقة بالمقاصد العامة للشريعة. فهذه الفنون من أدوات تحقيق المقاصد، وازدهارها دليل على الاقتراب من أعلى مراحل تحققها في الواقع. وما ازدهرت مقاصد الشريعة في الواقع إلا بمذاق الفنون الجميلة.

وفي تصوّرنا أن النشأة الأولى للفنون الإسلامية ترجع إلى لحظة نزول أول آية من آيات الذكر الحكيم

على قلب النبي الأمين. فآيات الكتاب المقروء، هي وآيات الكون المنظور، من أعظم آيات الجمال الذي يطرح في النفس الطمأنينة واليقين بخالق الكون ومُنزِّل الكتاب ﷻ. أما إذا بحثنا عن بداية تجلي الجماليات في صور مادية، فإن نشأتها -بالتقريب- ترجع إلى العام الأول للهجرة النبوية من مكة إلى المدنية؛ حيث ظهر نموذجها الأول في تخطيط مسجد قباء وهو أول مسجد بناه الرسول ﷺ. وكان نزوله ﷺ أرض قباء في ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، الموافق سبتمبر من سنة ٦٢٢م.

ورغم ندرة المعلومات التي وصلتنا عن تفاصيل تصميم ذلك المسجد ومكوناته المعمارية، إلا أن المتوافر من تلك المعلومات يؤكد في أغلبه على أن خلوه من التعقيدات وامتلاءه بالبساطة والانسجام بين عناصر المسجد المعمارية والوظيفية، هي أوضح المعالم الجمالية الأولى التي تجلت في مسجد قباء، ومنه انتقلت تلك العناصر إلى بقية المساجد في طول بلاد الإسلام وعرضها. ولم يمض وقت طويل حتى "اتخذ الفن الإسلامي المعماري الجديد أهم أشكاله المميزة خلال العقدين الأخيرين من القرن الأول الهجري، وهما العقدان الأوّلان من القرن الثامن الميلادي، وأشهر الأمثلة على ذلك هو الجامع الأموي في دمشق"[١].

ودخل "المسجد" في صلب التخطيط العمراني للمدن والأمصار، وأصبح لا يمكن تصور مدينة إسلامية إلا بوجود المسجد الجامع في وسطها. ثم تكاثرت الفنون المرتبطة بتصميم المساجد وتشييدها، وتطورت بمرور الزمن مع انتشار الإسلام ودخول أمم ذات حضارات عريقة فيه، ومنها حضارات الصين، والهند، وفارس، وروما، واليونان[٢].

ودون الدخول في تفاصيل تاريخ الفنون التي عرفتها الحضارة الإسلامية في تاريخها الطويل، فإن مقتنيات المتاحف والمعارض المتخصصة في الفنون الإسلامية وآثارها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا -وأحدثها هو متحف "السلام عليك أيها النبي" بمكة المكرمة[٣]- تدلنا على أن الفنون الجميلة بمختلف أنواعها نالت

الفن المتسق مع الإسلام هو الذي يحقق مقاصده في أمته وفي الإنسانية، عندما تشيع فيه الصبغة التي صبغت بها عقيدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان، إنها خيوط غير مرئية تلك التي تربط الوضع الإلهي بالإبداع الإنساني الجميل.

حظًّا وافرًا من العناية والاهتمام، وأنها أيضًا قد انفتحت على مختلف الخبرات الحضارية وهذبتها واستوعبتها وأضافت إليها وصبغتها بطابعها الإسلامي الخاص. كما تدلنا تلك الآثار على أن "وجود الله" هو الأساس العقيدي الذي صبغ كل أعمال الفن الإسلامي، وكما يقول روجيه جارودي: "إن كل غرض حتى ذلك الأكثر استعمالاً، سواء كان سيفًا أو إبريقًا، أو طبقًا من نحاس، أو سرج حصان، أو منبرًا، أو محرابًا في مسجد... هو محفور ومرصع أو مطروق ليشهد أنه علامة على وجود الله"[٤].

ورغم كثرة البحوث في قضايا الفنون الإسلامية ومشكلاتها النظرية والعملية، إلا أن السؤال عن علاقة هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة، لم يحظ بما يستحقه من الدرس والتأصيل. ولا تزال أغلب البحوث في الفنون الإسلامية معنية بالجوانب التاريخية، أو الفقهية (الحلال والحرام)، أو المعمارية والهندسية، أو بعلاقات التأثير والتأثر بين الفنون الإسلامية وغيرها من فنون الحضارات الأخرى. أو هي معنية بمسائل وموضوعات مفردة مثل فن الرسم، أو فن التصوير، أو فن التمثيل، أو فن الشعر، أو فن الموسيقى، أو فن الغناء، أو فن الزخرفة والزركشة؛ دون محاولة اكتشاف علاقة كل هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة.

قديمًا تناول علماء المسلمين الفنون الجميلة ومسائلها بقدر كبير من التوسع مع التعمق الفلسفي. فالمعتزلة مثلاً ربطوا الأخلاق والجمال بالعقل وبالشرع معًا، وذهبوا إلى أن ما حَسُنَ في نظر العقل يكون حسنًا في نظر الشرع. وابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ/٩٨٠-

hiramagazine.com

١٠٣٧م) رأى أن "جمال الشيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له"[٥]. وابن طفيل كتب رسالة في "فن الموسيقى" استعاد فيها النظرية الكلاسيكية حول التوافق بين أجناس الألحان والأمزجة البشرية، وأكد على الامتدادات التربوية والتطبيقية لهذا التوافق، بما في ذلك التطبيقات الطبية عنده[٦]. أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد قسم الجمال إلى "جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وجمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة"[٧]. وشرح الغزالي كيف أن الموسيقى أو فن "السماع" "يثمر حالة في القلب تسمى الوجد، وأن الوجد يؤدي إلى تحريك الأطراف بحركات غير موزونة تسمى "اضطرابًا"، أو بحركات موزونة تسمى التصفيق والرقص". وأكد على أن كل سماع، يتم عن طريق قوة إدراك، وأن قوى الإدراك الحسية هي الحواس الخمس... وأما القوى الباطنة فمنها قوة العقل وقوة القلب، وكل قوة من هذه القوى تلذذ بموضوعها إذا استحق هذا الموضوع هذا الشعور باللذة. ويُرجع الإمام الغزالي كل ألوان الجمال والخير إلى الله تعالى المتصف بصفات الجمال والجلال فيقول: "لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله، وأثر من آثار كرمه، وغَرفة من بحر جوده سواء أُدرك هذا الجمال بالعقول أو بالحواس، وجماله تعالى لا يتصور له ثان، لا في الإمكان ولا في الموجود"[٨]. ونستشف من تلك الرؤى العقيدية والفلسفية للفنون والجماليات الكونية والنفسية، أن فلاسفة المسلمين قد أدركوا عمق علاقة الفنون بمقاصد الشريعة، وخاصة بمقاصد حفظ الدين وحفظ العقل وحفظ النفس. ومقتضى كلامهم أن التأمل في الجماليات مؤد حتمًا إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وإلى الاتزان العقلي، والهدوء النفسي على مستوى الأفراد والجماعات. ومن ثم يسهم الاهتمام بتلك الجماليات وفنونها في تقوية ما نسمّيه "الصحة العامة" و"السلم الأهلي" وفق مصطلحاتنا المعاصرة.

أما حديثًا، فبحوث العلماء في موضوع الفنون الجميلة وعلاقتها بمقاصد الشريعة قليلة، بل هي نادرة جدًّا كما أسلفنا، ومنها مثلاً كتاب الدكتور محمد عمارة "الإسلام والفنون الجميلة"، ومنها أيضًا كتاب الرئيس علي عزت بيجوفتش "الإسلام بين الشرق والغرب" ففيه فصل عميق المعنى حول الفنون الجميلة ومقاصدها.

الدكتور عمارة بيَّن في كتابه أن الفنون يجب أن تكون جميلة في ذاتها، وجميلة في تأثيراتها ووظائفها ومقاصدها، وأن "فنون الدعة والبطالة والتواكل، الاسترخاء والسطحية والتفاهة، غير فنون الحمية والعمل والعزم والانتماء والنهوض". الأولى فنون جميلة بناءة، والثانية فنون ولكنها ليست جميلة بل هدامة. وهو يرى أن "الفن الجميل (...) مهارة يحكمها الذوق الجميل والمواهب الرشيدة، (...) لإثارة المشاعر والعواطف". وذهب الدكتور عمارة أيضًا إلى أن خروج المهارات والفنون عن المقاصد الرشيدة يجردها من شرف الاتصاف بالجمال"، واستشهد على ذلك بقول ابن سينا الذي أوردناه قبل قليل وهو أن "جمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له". وينتهي الدكتور عمارة إلى أن الفن المتسق مع الإسلام هو الذي يحقق مقاصده في أمته وفي الإنسانية، عندما تشيع فيه الصبغة التي صبغت بها عقيدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان، إنها خيوط غير مرئية تلك التي تربط الوضع الإلهي بالإبداع الإنساني الجميل"[٩].

أما الرئيس بيجوفتش، فقد رسم -في الفصل الثالث من كتابه- معالم نظرية إسلامية في الفنون من منظور إسلامي وبرؤية فلسفية عميقة. وكشف لنا ببراعة عن عمق الصلة بين الدين والفن والأخلاق عندما قال: "الدين يؤكد على الخلود والمطلق، وتؤكد الأخلاق على الخير والحرية، ويؤكد الفن على الإنسان والخلْق (...) وفي جذور الدين والفن هناك وحدة مبدئية". وذهب بيجوفتش إلى أن وجود عالم آخر ونظام آخر -إلى جانب عالم الطبيعة- هو المصدر الأساسي لكل دين وفن، فإذا لم يكن هناك سوى عالم واحد، لكان الفن مستحيلاً. وهو يعتبر العمل الفني من حيث هو إبداع "ثمرةً للروح". وبينما يكون المطلوب في العلم أن

hiramagazine.com

يكون دقيقًا، فإن المطلوب في الفن هو أن يكون صادقًا، لأنه يعكس النظام الكوني دون أن يستفسر عنه[١٠].

أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هي نقطة البدء في إدراك علاقة الفنون الجميلة بمقاصد الشريعة عند الأستاذ محمد فتح الله كولن. وهي النقطة الأعمق في إدراك هذه العلاقة بعيدة الغور كثيفة الفروع. فبينما الأستاذ يتأمل في حكمة بدء نزول القرآن بأمر "اقرأ"، نجده يؤكد على أن أمر "القراءة" موجه إلى أشرف المخلوقات ﷺ "الذي تجلت فيه جميع الكمالات"، والكمال والجمال هما ذروة الحسن والروعة. ويمضي الأستاذ "كولن" موضحًا أن الكون المعروض أمام أنظارنا -لنتأمله ونفهم معناه ومحتواه- شاهد على قدرة الخالق وعظمته وجماله. هذا الكون في رأيه "ليس إلا تجليًا من تجليات اللوح المحفوظ"، وهنا يصل الأستاذ إلى ذروة سنام إدراك الجمال المجرد من كل عيب، الجمال المصفى من كل شائبة. وقد جعل الله كل شيء في هذا الكون من أحياء أو جماد -عدا الإنسان- "قلمًا" لكي يقوم كل موجود بوظيفة تسجيل ما أودع فيه من تجليات وحكم"[١١].

تلك نظرة عابرة على أصل أصول الرؤية الإيمانية عند الأستاذ كولن للفنون الجميلة. ونحن بصدد تعقب تفاصيل هذه الرؤية في أبحاثه وتأملاته النظرية، وأيضًا في مشروعات وبرامج "الخدمة" المطبقة على أرض الواقع.

إذا نظرنا الآن إلى المدارس الغربية الحديثة في مجال الفنون الجميلة من حيث فلسفتها ووظائفها وأنماطها المختلفة، فسوف نجدها بالغة الثراء، وسنجد أن فيها ما لا يجافي الرؤية الإسلامية ويتفق معها حينًا، كما أن فيها ما يجافيها ويتناقض معها أحيانًا. ولا يصح أن نتجاهل "جماليات" الرؤية الغربية بحجة أن لها قبائح، مثلما لا يصح أن نتهاون بشأن قبائحها بحجة أن لها جماليات.

هناك من علماء الغرب وفلاسفته المعاصرين من ذهب إلى أن الشيء الجميل هو نتاج الممارسة الاجتماعية التاريخية، ويعتبر "هيجل" من أشهر القائلين

تكاد أغلب الرؤى الحضارية والفلسفية تشترك في أن أهم مقاصد الفنون تتمثل في تنمية العاطفة والوجدان، وتنمية مهارات الحواس وتدريبها على الإجادة والإتقان، وتحفيز الإنسان على الإبداع والابتكار وتأكيد الذات... وكلها مقاصد تندرج تحت الإطار العام لمقاصد الشريعة.

بذلك. وهناك من لاحظ -بحق- أن ظاهرة الانسجام وهي أساس الشعور بالجمال والسلام، وكذلك "عدم الانسجام" الذي هو أساس الشعور بالقبح والعنف، ترجعان إلى تاريخ طويل في حياة الإنسان. ومنهم من ركز على علاقة الفن بالحياة وبالدين وبالعلم، وخلصوا إلى أن الفن أداة ربط اجتماعي، ووسيلة تطهير للنفس الإنسانية، وضمانة للتماسك والتجانس بين أبناء المجتمع الواحد. وهناك علماء وفلاسفة آخرون ربطوا بين الجمال والأخلاق ونبهوا إلى الدور التربوي لكليهما، بل وأقاموا علاقة وثيقة بين "الخير والحق والجمال"[١٢]. ومن هؤلاء مثلاً الأديب الروسي بلنسكي (١٨١١-١٨٤٨م) الذي قال: "إن الجمال شقيق الأخلاق. والصور الفنية الإيجابية التي تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها، تفرض الاحترام والحب والإعجاب المخلص. وتعطي أنماط الأبطال الحقيقيين في الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين. أما الصور السلبية فهي تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقي، والاحتقار التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا في طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التي نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنيء. ومن ثم فإن وحدة الجمالي والأخلاقي هي أساس الدور التربوي ودور التحويل الأيديولوجي اللذين تقوم بهما الفنون في الحياة الاجتماعية"[١٣].

للفنون إذن، مهمات لا غنى عنها في كل حضارة من الحضارات وإن اختلفت مرجعياتها الفلسفية، أو تباينت غاياتها النهائية. وتكاد أغلب الرؤى الحضارية والفلسفية تشترك في أن أهم مقاصد الفنون تتمثل في تنمية

hiramagazine.com

العاطفة والوجدان، وتنمية مهارات الحواس وتدريبها على الإجادة والإتقان، وتحفيز الإنسان على الإبداع والابتكار وتأكيد الذات، وضبط الانفعالات وترويض النزعات الجامحة ووضعها في حالة اتزان، وتقدير العمل اليدوي ومهارات الصناعة، وفتح المجال أمام الخيال واستثماره في خدمة الإنسان والعمران، وكلها مقاصد تندرج تحت الإطار العام لمقاصد الشريعة.

ولكن، رغم نبل تلك المقاصد أو الغايات، إلا أن الفنون لم تَسلم من سوء الاستخدام لتأجيج الصراعات الدينية والمذهبية، أو لتحقيق مآرب اقتصادية وسياسية على حساب الغير، حتى إن بعض الحركات ذات "النزعة الإنسانية" العالمية لا تخفي رغبتها في استبدال الفن بالدين[١٤]. وفي سبيل ذلك تقوم تلك الحركات بتسخير المعارض الفنية، والمسلسلات التلفزيونية، والأفلام السينمائية، والأعمال المسرحية والغنائية، ومختلف الفنون التشكيلية، من أجل تدمير الدين والاستغناء بالفن عنه.

وإذا كانت الفنون الإسلامية تشترك مع غيرها من الفنون في أغلب تلك الغايات، إلا إنها تظل مرتبطة بتصور الوجود حسب رؤية الإسلام للكون والحياة والإنسان والخالق ﷻ. ووفق هذا التصور فإن الفنون الإسلامية ترسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود. ولهذا اتسع نطاق عمل الفنون الجميلة في حضارتنا الإسلامية، ولدينا سوابق بارعة الجمال في النقش والنحت، والرسم والزخرفة، والتصوير والحفر، والموسيقى والشعر، والغناء، والخط، والمنمنمات، وأيضًا في أصول تنظيم المدن والأمصار وتخطيطها، وهندسة البناء... إلخ.

في كتب أصول البنيان والخطط العمرانية للأمصار والمدن الإسلامية[١٥] نجد تشديدًا على ضرورة توافر الجوانب الجمالية، وتأكيدًا على وجوب مراعاة معايير الجودة في التخطيط وهندسة البناء، ونجد اهتمامًا خاصًا بما نسميه جماليات "المجال العام" من السقايات، والنافورات، والمفترجات، والميادين الرحبة، والأشجار الوارفة، والاستراحات العامة... إلخ. ولم يهتم المعماريون المسلمون وحدهم بتلك الجوانب الجمالية، وإنما اهتم بها أيضًا كتاب الحكمة السياسية والأحكام السلطانية في معرض حديثهم عن إنشاء الأمصار. ومن ذلك الشروط التي ذكرها الماوردي في كتابه "تسهيل النظر" ومنها: سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة، وقرب المكان مما تدعو إليه الحاجة من المراعي والأحطاب، وتحصين المنازل من الأعداء[١٦]. ولابد أن مراعاة تلك الشروط في تأسيس المدن استلزم تطبيق معايير جمالية متنوعة، وكان من شأن ذلك أن يوفر ضمانات لا غنى عنها لسلامة الصحة النفسية والاتزان العقلي لسكان المدينة؛ فالمشاهد الجميلة، والألوان المتناسقة، والمساحات الخضراء والزهور المبهجة، والموقع الملائم للهواء النقي... كلها تؤثر إيجابيًا على المزاج النفسي العام، بخلاف مشاهد التلوث والقبح والفوضى والعشوائية التي تضر بالصحة النفسية وتشجع على العنف وارتكاب الجرائم، ومن ثم إلحاق الأذى بالنفس، والمال، والنسل، والعقل، والدين في آن واحد، أي إهدار المقاصد العامة للشريعة.

وبالنظر في أحوال مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، نجد أن ما يقدمه مبدعو الفنون الجميلة، يتسم بالهزال والركاكة ولا ينطوي على ابتكارات جديدة، وتغلب عليه ملامح التبعية لمدارس الفنون الغربية. وقد أسهمت بعض الرؤى السلفية المتشددة في تكريس هذه الحالة الفنية المتردية مثلما أسهمت بعض الرؤى المتغربة في ذلك أيضًا. وكانت النتيجة هي ما نراه من تشوه في الوعي، وتمزق في الوجدان، واختلال في عمليات التنشئة على المستويات الفردية والجماعية، ومن ثم تكونت أجيال مجروحة الهوية في مختلف مجتمعاتنا المعاصرة. وكان للمدارس الأجنبية التي نشأت في بلادنا الإسلامية دور خطير في تشويه وجدان أجيال عدة من أبناء المجتمعات الإسلامية وخاصة من أبناء الطبقات العليا وأصحاب السلطة والثروة. وقد كان إنشاء ثلاثة آلاف مدرسة أجنبية في أرجاء الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر وحتى إلغاء الخلافة في سنة ١٩٢٤م، كفيل بتكوين نخبة منفصلة عن هويتها

hiramagazine.com

ومعادية لأمتها نتيجة ما تلقته من مقررات تربوية وفنية وتعليمية تنتمي لتراث فلسفي وحضاري، له مقاصد وغايات لا تنسجم بالضرورة مع غايات المجتمعات الإسلامية ولا مع مقاصدها العامة.

إن أهم ما يكشف عنه التاريخ الحديث والمعاصر للفنون في مجتمعاتنا الإسلامية، هو أنها أصبحت في خدمة عمليات إعادة تشكيل الوجدان -الفردي والجماعي- بعيدًا عن المرجعية الإسلامية ومقاصدها العامة، بل وعلى نحو معاد لهذه المرجعية. ونعتقد أن "الفنون الحديثة" في بلادنا بجملتها، قد أسهمت في تعميق حالة الانقسام الثقافي بين اتجاهات متعارضة، بعضها يتمسك بهويته الموروثة، وبعضها ينفتح على هويات وثقافات أخرى وافدة. وكان من نتائج ذلك أن مجتمعاتنا عاشت -ولا تزال تعيش- ضمن سيناريوهات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية ليست فاعلة فيها ولا منتمية وجدانيًا إليها، بل كانت في أغلب الأحوال مادة استعمالية لتلك السيناريوهات. وبمرور الوقت زادت التحديات التي تواجه مبدعي الفنون الجميلة الإسلامية، وزاد انفصالهم عن استلهام مقاصد الشريعة، وزاد ابتعادهم عن خدمة هذه المقاصد. وبات من يتصدى للإبداع الفني والجمالي بمرجعية إسلامية، بحاجة ماسة إلى تأهيل رفيع المستوى، وحرفية بارعة، ورؤية فلسفية واسعة الأفق تستجيب لمقاصد الشريعة وتكون في خدمتها، على النحو الذي كان عليه أسلافه من مبدعي الفنون الجميلة في عصور الازدهار الحضاري الإسلامي. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) تراث الإسلام، لجوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث، ج١، ترجمة: محمد زهير السمهوري وآخرين، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكتاب رقم:١١، ص:٢٩٧.

(٢) الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، لعمر رضا كحالة، دمشق، المطبعة التعاونية ١٩٧٢، ص:٥-٢١.

(٣) تم افتتاح "متحف السلام عليك أيها النبي" في مكة المكرمة مع مطلع العام الهجري الجديد ١٤٣٤هـ/يناير ٢٠١٣م، والمتحف يحتوي على ١٥٠٠ قطعة من الآثار وأعمال الفنون الجميلة القديمة التي كانت على عهد النبي ﷺ، أو هي محاكاة لها. وهو توثيق لعصر النبي وصحابته الكرام ﷺ. وقد لقي المتحف إقبالاً كبيرًا وترحيبًا واسعًا من جمهور المسلمين، الأمر الذي يؤكد أهمية الفنون الجميلة في مخاطبة الوجدان وترقية المشاعر وغرس القيم النبيلة في نفوس الناس.

(٤) وعود الإسلام، لروجيه جارودي، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٧٦، ص:١٩٠.

(٥) كتاب النجاة، لابن سينا، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٣٨، ص:٧٩.

(٦) تاريخ الفكر العربي الإسلامي، دومينيك أورفوا، ترجمة: رندة بعث، مراجعة: سهيل سليمان، المكتبة الشرقية، بيروت ٢٠١٠، ص:٥٤٠.

(٧) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة للنشر، بيروت ب.ت، ج٢، ص:٣١٦.

(٨) المرجع السابق، ج٢، ص:٣٠٦.

(٩) الإسلام والفنون الجميلة، لمحمد عمارة، دار الشروق، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص:٧،١١.

(١٠) الإسلام بين الشرق والغرب، لعلي عزت بيجوفتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار النشر للجامعات، ط٢، القاهرة ١٩٩٧، ص:١٣٧-١٧٦. وانظر إلى المرجع السابق.

(١١) أسئلة العصر المحيرة، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٨، ص:٧.

(١٢) فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، لمحمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٣، ص:٢٥-٤٩، وص:٦٥-٧٩.

(١٣) الموسوعة الفلسفية السوفيتية، إشراف: ف. روزنتال، وب. يودين، ترجمة: سمير كرم، بيروت ١٩٧٤، مادة الجمالي والأخلاقي.

(١٤) الشريعة الإسلامية والفنون، لأحمد مصطفى القضاة، بيروت، دار الجيل. عمان، دار عمار، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص:٢٥.

(١٥) منها مثلاً كتاب: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي بن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: فريد بن سليمان، دار النشر الجامعي، تونس ١٩٩٩. وكتاب: زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٣٧. وكتاب: محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ١٩٨٨. وانظر قائمة ببلوجرافية بعناوين مراجع في الفنون الإسلامية ملحقة بهذا البحث.

(١٦) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي (ت:٤٥٠ هـ)، تحقيق ودراسة: رضوان السيد، مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي، بيروت ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م.

hiramagazine.com

د. محمد البشير الهاشمي مغلي*

الحريّة الشرعية في أزاهير النور

يأبى الإسلام في منظور النُّورسي حرية بهيمية سائبة كالتي تدّعيها المدنية الغربية برداءة، سيما أن الدين الحنيف يدعو إلى حرية تكريمية مسؤولة مهذّبة، وإلا فالحرية بلا حدود وهمٌ بحرية زائفة. والواقع أنه لا توجد حرية مطلقة في العالم، وإنما هناك نسب متفاوتة في الحريات من حيث السعة والبعد الإنساني ودرجة التحضر. ويصدق في هذا الصدد، قول الفيلسوف الألماني ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦م): "إن الله وحده هو الحر الكامل، أما المخلوقات العاقلة فلا توصف بالحرية إلا بقدر خلوصها من الهوى".

هذا وحرية بلا حدود تقلّب في عبودية أوسع، ورسف في رقّ أشمل، بل هي تنويع في الكوابل وتلوين للقيود، أو هي تمديد في سلاسلها.

ومعلوم أن التمديد في سلاسل القيد قد يوهم بالحرية، ولكنه لا يحرر مهما اتسعت فضاءات الحرية "الموهومة". وليس في الإسلام ما ألفاه نيتشه وهو "يلخّص مسيرة الصراع بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد بالقول إن جميع الفترات التاريخية -منذ ظهور المسيحية- كانت في جملتها مسرحًا لأخلاق العبيد، إذ لم تكن أخلاق السادة تظهر إلا عرضًا، ولذلك كانت تختفي سريعًا".

ثم إن الحر بطبعه لا يقيد نفسه، فلا يتجه تلقائيًّا إلى التقليص من الحرية، بل تراه في مطمحه يهفو إلى الاستزادة منها سجية... وإنما هو يتقيد بالإملاء والإلزام، "لأن الحرية الحقيقية يلزم أن تتحلى بآداب الشريعة وإلا

فإنها لا تعد حرية" كما يقول النورسي.

ولئن اعتبرت المدنية التائهة القيد من الحرية انتقاصًا من السيادة، فهذا صحيح ما دام واضع القيد بشرًا وصيغ ذلك في دساتير وقوانين ونظم.

وبقدر الحد منها، يكون الاستعباد وتحلّ التّبعية. يكون ذلك بالفعل -بنحو أو آخر- رقًّا بين الناس بشكل منظم أو مقنّن حين يضعه أو يسنه الأقوى للأضعف. فهو لا يخرج بحال عن مفهوم العبودية مهما تطور إطار الاستعباد أو دخل التنميق على المسميات. فتلك هي إذن، في عين بديع الزمان "حرّية حريّة بالنار، لأنها تختص بالكفار". أما إذا كان واضع القيد، الإله سبحانه في جملة آداب سماوية رفيعة هي الأخلاق الشرعية، أضحت العبودية ذاتها تكريمًا لا يلبث أن يتحول بالوعي الإيماني إلى عبادة حرة وسعادة أبدية بشعاع آخر: "الحرّية بالنسبة إلى الإنسان تنتج العبودية أمام الله". وتلك الحرية بعينها، "عطيّة الرحمن، إذ إنها خاصية الإيمان"، وساعتها "من كان عبدًا لله حقًّا لا يكون عبدًا للغير".

ولننظر هنيئة في أمر القيود بمجهر الأداة الدقيقة التي تمنحها لنا شهادة التوحيد؛ فـ"لا إله" رفض لأصناف القيود، وهاتيك القيود ذاتية مصطنعة قهرية مستعبدة استذلالية جائرة من صنع الإنسان. وهي في الحصيلة هاتكة لحريته ساحقة مبددة للأحرار.

و"إلا الله" استثناء لصنف واحد من القيود، وتلك القيود موضوعية ثابتة مقبولة محررة تكريمية، من تدبير الخالق تعالى. وهي في الحصيلة منعشة للحرية واقية لها، جامعة مؤلفة للأحرار.

ولذلك حذر النورسي من مغبة إطلاق الزمام للنوازع والفوضى باسم الحرية، وكان يدعو إلى ضبط الدوافع بضوابط الشريعة: "قيّدوا الحرية بآداب الشرع، لأن عوام الناس والجاهلين يصبحون سفهاء وعصاة وقطاع طرق، فلا يطيعون بعد أن ظلوا أحرارًا سائبين بلا قيد".

ولا عاصم إذن من تلك الفوضى والفرقة ومن تضارب المصالح والانجراف الأخلاقي، إلا أن تلتزم الحرية بالدين الأمثل.

إن الحريــة هي أن يكون المــرء مطلق العنان في حركاته المشروعة، مصونًا من التعرض له، محـفوظ الحقــوق، ولا يتحكــم بعــض ببــعض ليتجلى فيه نهي الآيـة الكريمــة: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آل عمـران:٦٤)، ولا يتأمر عليه غير القرآن والعدالة والتأدب لئلا يفسد حرية إخوانه.

حراء

هذا وقد يكون الإنسان حرًّا -وإن بدا مكبلاً بالقيود إلى الأذقان- إذا كان شعوره يفيض بمبادئ الحرية وقيمها ومثلها، فيضًا بلا ليًّا أو ياسريًّا أو نورسيًّا لغلبة الروح على المادة.

وقد يكون كذلك في الظاهر حرًّا طليقًا من كل قيد مادّي، ومع ذلك نجده في الحقيقة واقعًا في أسر قيود لامرئية كثيرة، مطأطئًا لشهوات عديدة، تستعبده أهواء شتى، وتسترقّه أغلال اجتماعية تجتاح روادع العقل ووازعات الضمير وزواجر الرأي العام وقوارع الدين، وتخترق معالم الإنسانية فيه لتنساب في دوّابية أحطّ من الحيوانية العجماء. ولقد عبّر عنها "صيقل الإسلام" وهي مغلولة بخوارم المروءة: "بطنطنة الأغراض التي تشوّش على صدى موسيقى الحرّية".

الانعتاق اليوسفي

في ضوء "الكلمات" النورانية، نفهم السر الذي من أجله آثر يوسف الصّديق عليه السلام في إباء وكبرياء أن يكون حرًّا في سجن العزيز، على أن يظل عبدًا في قصر الملك: "فمن عرف الله وأطاعه سعيد ولو كان في السجن، ومن نسيه فهو في السجن ولو كان يعيش في القصور".

وما كان ليدرك بانشراح سعادة هذا الانعتاق الجياش لولا قناعته بيقين تجريبي محسوس بأن "العبادة تحرر من أسوار السّجن" سواء كان هذا السجن زنزانة الطاغوت، أم مربض المجتمع الجاهلي. ومن قبل كم من أسير حرب كان الأسر في الإسلام يعزّ عليه ويودّ لو أنه يفديه "بحريته" في غيره.

ذلك أن أبلغ معاني الحرية ما ارتبط في دعمها بالقيم، لا ما ارتطم في دحضها بالإرادات والتحكمات

hiramagazine.com

والقهر. انظر إلى الـ"صيقل" كيف يصقل وشاحها الشرعي بهذا الإخراج البلاغي المبين وهذا اليقين اليوسفي الركين: "ألا إن الحرية هي أن يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة، مصونًا من التعرض له، محفوظ الحقوق، ولا يتحكم بعض ببعض ليتجلى فيه نهي الآية الكريمة: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آل عمران:٦٤)، ولا يتأمر عليه غير القرآن والعدالة والتأدب لئلا يفسد حرية إخوانه".

الحريات الفكرية في الإسلام

يجدر التذكير هنا بإطار المبادئ الإسلامية التي تنطلق منها أزاهير النور حين الحديث عن الحرية الفكرية، وأنها لم تكن انتزاعية كما في الغرب، أو أنها جاءت استجابة لتطور تاريخي، أو ثمرة نضالات مريرة أو مثخنة بحربين عالميتين، أو أعقبت محاكم التفتيش... كلاّ، بل هي لم تبرح قط من مستلزمات العقيدة ومقررات الدين أساسًا. ولعل أبلغ تعبير عن هذا التجذير الإيماني لأعماقها لألاء هذه اللمعة البارقة: "إن الإيمان يعلّمني بأنني مرشّح لدنيا أخرى أبدية، وأني مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة"، أو إشراق هذا الشعاع الساطع: "بمقدار قوة الإيمان تتلألأ الحرية وتسطع".

وفي استقراء مرامز التحرير الإيماني الفياض يقول أديب إبراهيم الدباغ: إن هذا الإيمان "يطلق الإنسان" من أسر الزمان والمكان، ويضع عنه قيود الدنيا وأغلالها، ويمنحه سعة يسع بها الكائنات ويعطيه أمداء نحو الآزال والآباد، فيغدو عمره عمر العالم، وحاضره بحرًا تصبّ فيه أنهار الأزمنة ماضيها ومستقبلها، فيصبح بذلك إنسانًا كونيًا، داره الكون كلّه، وحديقته العالم جميعه، وموضع نظره البشرية بأسرها، يريد لها ما يريده لنفسه من هذا السّمو الذي سما إليه وهذا الارتقاء الذي ارتقى نحوه، فهذه هي رسالة "الإيمان".

ذلك أن نجدة الإسلام الرئيسية الأولى للإنسان، تتمثل في حرية الاعتقاد حين أزاح من أمامه -في منهج اكتساب عقيدته- جميع العوائق والعقبات التي تقف دون اختياره الحر وإن كانت معنوية أو انتصبت بنحو غير مباشر.

والجميل أنه لم يستعجله البتّة في تحصيلها، وإنما اشترط في نتيجتها جدّية أن يكون الالتزام رديف اليقين، كي لا تذهب ثمرتها العقلية هدرًا في مجتمع عقائدي حر، وألا تظل حكرًا على صاحبها أو حبيسة معتنقها. بل تراه أوجب مبدأ التحرير بعد التحرر، إيمانًا منه بأن الانعتاق لا يكتمل إلا بالعتق خدمة لمبدإ آخر يقضي بوجوب الإقناع بعد حصول الاقتناع في غيرية خيرية عالمية دفاقة نستلهمها بيسر وغزارة من الحديث الذهبي الشريف: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه" (رواه البخاري).

وهذا قاض بجهاد مقدس في تحرير الآخرين بعد اكتمال التحرر الذاتي، إذ لا جدال في أن فاقد الحرية لا يعطيها. فـ"إكسير الإيمان إذا دخل في القلب يصيّر الإنسان جوهرًا لائقا للأبدية والجنة، وبالكفر يصير خزفًا فانيًا، إذ لا إيمان يرى تحت القشر الفاني لبًّا لطيفًا رصينًا ويرى ما يتوهّم حبابًا مشمسًا زائلاً، ألماسًا متنورًا. والكفر يرى القشر لبًّا فيتصلّب فيه فقط، فتنزل درجة الإنسان من الألماس إلى الزجاجة، بل إلى الجماد". وبتوخي الاقتضاب نقول في لمس تحليلي للخواطر:

حرية الرأي

إن حرية الرأي إذا كانت هادفة، تكشف عن زاوية نظر مغايرة يثرى بها الرأي ويزداد سدادًا، ويتعزز بها العقل، وتتربع بها الحكمة، وتنمو الملكات... فأيّ ضير في إطلاقها إلا من قيدَي العقيدة والأخلاق لضمان أسلوب التعامل الحضاري الرفيع والتّجاور في كنف الاحترام المتبادل؟

ولذلك تنطلق زفرة أسير الفكر الحر من غياهب النفي، والحجْرِ على الحرية الفكرية والدعوية، وهو منكبّ على التأمل في حفريات سر القول المأثور: "تفكّر ساعة خير من عبادة سنة"، وفي رواية صاحب الإحياء "خير من ستين سنة". والذي حدا به إلى تأليف "الحزب الأكبر النوري" ضمن كتاب التفكير الإيماني ليزيل به عن نفسه الضيق والسآمة والإرهاق، تنطلق هذه الزفرة الحرّى لتتحول إلى صرخة مدوّية لتبدّد سجوف "الحرية العلمية" المزعومة بهذا التساؤل: "ما الجانب المحظور

hiramagazine.com

من التحاق شاب بريء يحتاج إلى العون والمساعدة بصفوف طلبة النور، كي ينقذ إيمانه وينجو من التردي في هاوية الأخلاق الذّميمة؟"، اللهم إلا إذا انقلب ظهر المِجنّ على الحقائق وتبدّلت الأوضاع غير الأوضاع، حينها لا يألو من "جمع في حفظه جمع الجوامع جميعه في جمعة"، في كشف زيف هذا الواقع الملبّس ببركانية هذا التصريح التشنيعي الفاضح: "لقد وضع الظلم على رأسه قلنسوة العدالة، ولبست الخيانة رداء الحمية، وأطلق على الجهاد اسم البغي، وعلى الأسر اسم الحرية. وهكذا تبادلت الأضداد صورها". وبعد هذا الازدراء والتهكم في مقاومة التلبيس والتدليس بالباطل، يقرر هذه الحقيقة: "لا يمكن بالظّلم والجور محو الحرّية" في أيّ شكل من أشكالها.

تأسيس الشورى

ثم إن الإسلام لم يكتف بالإعلان عن المبادئ، بل انبرى إلى إنشاء هياكل لترسيخها في النفوس والمجتمعات، حيث قرر بكل سبق وريادة باعتباره دينًا -وهنا المفخرة- وليس منظمة أممية أو حكومة أو برلمانًا أو حزبًا سياسيًّا، تأسيس الشورى. وأمر المعصوم ﷺ رغم ما في عصمته من غنية، بإجراء المشورة ونشر تقاليد الاستشارة، طبعًا على غير المنحى العصري المتعثر الذي يقف بعرجته على "العلم" دون الأخلاق.

وحين يقرر بديع الزمان عن معاناة ومكابدة بعيدًا عن التجريد والتقريظ أو التنظير الدعائي البحت أن "الحرية التي هي ضمن نطاق الشريعة وأن مفتاح حظّ آسيا وسعد الإسلام موجود في الشورى"، فإنه يخرج من إطار الأدبيات التمجيدية إلى البوح العملي الواقعي الصادق، ليعلن بعزيمة رجل السياسة الشرعية المحنّك: "إن ما يفتح حظّ آسيا هو الشورى والحرية المشروطتان بتربية الشريعة الغرّاء".

وليس سواهما من ملجإ في الراهن دون الأنظمة المستبدة الجائرة، وإلا كانت حقيقة بتهكّمه بمثل هذه الألقاب المتزندقة التي ندد بها على هذا النحو الكاشف: "جمعية تشكلت برئاسة "الجهل" آغا، و"العناد" أفندي، و"الغرض" بك، و"الانتقام" باشا، و"التقليد" حضرة تلري ومسيو، "الثرثرة" وهي جمعية تشوّه "الشورى" التي هي منبع سعادتنا".

ميزة الاجتهاد في رحاب التحضر الإسلامي

ثم ألم يئن الأوان للمكابرين أن يعلموا أن حرية الرأي في الإسلام قد أفضت إلى إنشاء مناهج الاجتهاد، وتعدد المذاهب، وانتشار مدارس الرأي، وقيام علم الكلام، على أساس من رحابة الصدر في الاستماع إلى الآخرين، هذا الذي يطلقون عليه اليوم اصطلاح "حرية التعبير" أو حرية الاختلاف والتّنوع، وهو مسبوق لا محالة بالشعار الذهبي لحضارتنا الإسلامية الزاهرة: "لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها"، وليس مثله شعار يجرّئ في الحق ويرفع عن القائلين حواجز الخوف إلا مرادفاته من قبيل هذه المأثورة: "فلا تأخذك في الله لومة لائم"، أو قرينات هذه الآية الكريمة في تجسيد الموقف القولي المسؤول: "﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الزخرف:٢٨)". وحسبنا من هذا دليلاً على كفالة حرية التعبير التي يزخر بها تراثنا الإسلامي العتيد.

وعودًا إلى سياق الاجتهاد، فإن العلامة النورسي يستدرك براغماتيته بهذا التحذير من الاستبداد الخفي المناهض للشورى الحقيقية بين أولي العلم والاختصاص العالي، حيث يقول: "ولكن لا يكون هذا الاجتهاد موضع عمل إلا عندما يقترن بتصديق نوع من إجماع الجمهور. فمثل هذا الشيخ -أي شيخ الإسلام المستند إلى المجلس الشوري- يكون قد نال هذا السرّ. فكما نرى في كتب الشريعة، أن مدار الفتوى الإجماعُ، ورأي الجمهور يلزم الآن ذلك أيضًا، ليكون فيصلاً قاطعًا لدابر الفوضى الناشبة في الآراء".

مسك الختام

بهذه "اللّمع" النيرات، وفي ضوء هذه "الكلمات" النورانية، وباستثمار القرآن المجيد "أستاذ الحضارات ونبع التقدم والرقي"، تتوخّى رسائل النور حركة إيجابية في الحياة، تتنامى بـ"إكسير الإيمان" وكأنها "ترياق شاف من جميع جروح العصر الدامية"، بعيدًا عن الفلسفة المادية التي يعتبرها داعيةُ الأناضول طاعونًا معنويًّا في

hiramagazine.com

نشدان أزلي شامخ شموخ الجبلِ "سُبْحان" و"أرارات" للحرية المستندة إلى الشريعة الغراء.

تلك إذن هي ملامح ومضية من إشراقات لمع العلامة بديع الذي لا يخلو أسلوبه العلمي والأدبي الروحاني من البديع في بليغ رسائله المستنيرة، التي احتسبها لخلاص البشرية من نكباتها ومترددياتها بقيم حرية تكريمية لا تتجزأ في عالم المحراب الكبير بحيث لا يرضى فيها أي إنسان، تحقق انعتاقه بعقيدة التوحيد الصحيح "أن يكون حرًّا في مجتمع العبيد، كما لا يرضى أن يكون عبدًا في مجتمع الأحرار". ■

---

[*] كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة / الجزائر.

المراجع

[1] قضايا في الفكر المعاصر، للدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ببيروت لبنان ،حزيران/يونيو ١٩٩٧.

[2] الخطبة الشامية، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، لبنان ١٩٧٤.

[3] صيقل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٧.

[4] Munazarat، نقلاً عن الدكتور سمير رجب محمّد، الفكر الأدبي والديني عند الدّاعية الإسلامي بديع الزمان سعيد النورسي، ط٢، مطبعة المدني القاهرة ١٩٩٥.

[5] النورسي في رحاب القرآن وجهاده المعنوي في ثنايا رحلة العمر، لسليمان عشراتي، سوزلر للنشر والتوزيع، فرع القاهرة ١٩٩٩. (بتصرف قليل).

[6] اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٧.

[7] المثنوي العربي النوري، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٩.

[8] إحياء علوم الدين، للغزالي.

[9] الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٩.

[10] في إشارة إلى قراءته يوميًّا ساعة أو ساعتين لكتاب "جمع الطوابع"، لابن السّبكي وهو من علماء الشافعية.

[11] التقريب بين منازع الاختلاف ومنازعات الخلاف، لمحمد البشير الهاشمي مغلي، ضمن منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، أعمال الملتقى الدولي للتفاهم بين المذاهب الإسلامية، الجزائر ٢٥-٢٧ مارس ٢٠٠٢.

يا إنسان!

من نَومِك انْهضْ،
من عجزك تحرَّرْ،
وفي روحِكَ أشْعل ثورة،
وفي أفْقِكَ أوقد ألف شمسٍ وشمس...
فأنتَ وحدكَ الْـمُرتجى،
للنور والسلام...

* * *

أ.د. بركات محمد مراد*

عبد اللطيف البغدادي
عالم موسوعي وطبيب حكيم

يعتبر موفّق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م) من العقول الممتازة في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، جمع بين التحصيل الوافر الدقيق لكل من العلوم المعروفة في عصره، وبين أصالة الفكر ودقة المنهج العلمي، والقدرة على النفوذ إلى جوهر المشكلات العلمية. فقد أتقن علوم العربية حتى صار من أعلام النحاة، وحدّث فتخرج على يده نفر من المحدثين، وفاض في علوم البلاغة فكان له فيها مؤلفات عديدة. لكن هذا الجانب الفقهي الخالص كان -مع ذلك- أضعف جوانبه، إنما قيمته -كل القيمة- في العلوم العقلية كما كانت تسمى آنذاك؛ في الفلسفة والجغرافيا، والطب والنبات. وأبرز ما له في الفلسفة، أبحاثه في المنطق التي تنبه فيها إلى كبريات المشكلات المنطقية فأفرد لها الرسائل. أما الطب فكان يمارسه علمًا وعملاً وتعليمًا، وله فيه الدراسات الوافرة والمختصرات المفيدة لمتعلّمي الطب، فضلاً عن أصالة المنهج في الملاحظة والتشخيص والكشف عن الأسباب والعلامات.

"إن ما تراه أعيننا أصدق بكثير مما نقرأه"، قال هذه الجملة -التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عقلية ناقدة- طبيب وعلامة من أصفياء صلاح الدين، وهو عبد اللطيف البغدادي الذي أمضى حياته متنقلاً في كل مدن إمبراطورية المشرق، وعلّم في مدارسها العالية. وكان أينما ذهب وحط الرحال،

يسخّر عينيه وعقله باحثًا منقبًا مستفهمًا عن الحقيقة.

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يعجب به مؤرخ العلم الكبير "جورج سارتون"، حيث مدحه في كتابه "المدخل إلى تاريخ العلوم"، وذكر أنه يمتاز عن غيره بأسلوبه السهل واضح الأفكار. فالبغدادي عالم فذ، ومن أعظم الموهوبين في عصره، وقد ساهم مساهمة ملحوظة في جميع فروع المعرفة، إذ إنه من العلماء الذين لا يؤمنون بالرواية المتناقلة، بل يميل تمامًا إلى المشاهدة والتجربة العلمية، لكي يصل إلى النتائج الصحيحة.

نشأته ورحلاته العلمية

يقول ابن أبي أصيبعة بأن البغدادي تربى في حجر الشيخ أبي نجيب السهروردي، لا يعرف اللعب واللهو، وأكثر زمانه منصرف إلى سماع الحديث، وأخذت له إجازات العلم من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر. ولما ترعرع، حمله أبوه إلى "كمال الدين عبد الرحمن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) شيخِ بغداد، فتلقى عنه كثيرًا من العلوم. ويورد البغدادي كثيرًا من الكتب والمؤلفات التي حفظها وفهما مثل "اللمع" و"أدب الكاتب" لابن قتيبة، و"مشكل القرآن" و"غريب القرآن" له أيضًا، و"الإيضاح" لأبي علي الفارسي وشروحه، و"المقتضب" للمبرد، ومؤلفات الأنباري والتي تبلغ أكثر من مائة وثلاثين مؤلفًا أكثرها في النحو واللغة والأصول والتصوف والزهد، وكُتب سيبويه، و"الأصول" لابن السراج، و"الفرائض" و"العروض" للخطيب التبريزي، و"معاني القرآن" للزجّاج. ثم أتى على كتب "جابر بن حيان" في الكيمياء، وكُتب "ابن وحشية"، ثم مؤلفات الإمام الغزالي "المقاصد" و"معيار العلم" و"ميزان العمل" وغيرها، حتى إذا فرغ من الغزالي، انتقل إلى كُتب ابن سينا صغارها وكبارها بدءًا من "النجاة" وانتهاء بـ"الشفاء".

لقد زار البغدادي كثيرًا من المدن الإسلامية المشهورة بعلمائها مثل الموصل ودمشق والقاهرة والقدس، كي يتتلمذ على كبار العلماء هناك ويجالس كثيرًا منهم. درّس في الأزهر الشريف حقلَ الطب، وتفنن في هذا المجال حتى صار من كبار الأطباء. لقد كان البغدادي كثير الترحال بين مختلف البلدان العربية والإسلامية، وكان يحمل معه من الكتب ما استطاع، ويضيف ويكمل ما ابتدأ به أنى حل وأقام.

ويجمع المؤرخون والمترجمون على أن البغدادي كان شديد الذكاء، سريع الحفظ، واسع الاطلاع، غزير المعرفة، وكان عالمًا باللغة والفقه والتاريخ والفلسفة والطب والنبات، كما كان كثير التأليف، خصب الإنتاج، ألف وصنف كتبًا كثيرة في الطب والنحو والمنطق وأصول الدين والحيوان والنبات، وشرح وفسر واختصر كثيرًا من الكتب للأقدمين. وكان كثير الاعتداد بنفسه، صريحًا، جريئًا، لاذع النقد.

مؤلفاته

يذكر "عمر رضا كحالة" في كتابه "العلوم البحتة في العصور الإسلامية" أن البغدادي اختصر كتاب "الأدوية" المفردة لـ"ابن وافد" وعلق عليه، كما أوجز كتاب "النبات" لـ"أبي حنيفة الدينوري"، وعلق وشرح على كتاب "ديسقوريدس" في صفات الحشائش، ومقاله في النخل، كما ذكر تفاصيل ما شاهده من نبات مصر وشرح بعضه وعلق عليه.

وهنا يجب ألا ننسى دور البغدادي في علمي النبات والصيدلة. فهو من كبار الصيادلة المسلمين والمعتمدين في استخراج عقاقيرهم من النباتات التي تجود بها البيئة، ومن الذين عرفوا الأعشاب وخصائصها الطبية. فكان في عصرهم الطبيب هو النباتي، والنباتي هو الطبيب لقرب الصلة بين المهنتين. كما كان البغدادي من العلماء الذين يؤمنون بضرورة الزيارات للعلماء المتخصصين، كي يتمكنوا من تبادل الخبرة والمعلومات التي لا يستطيعون تقديمها بالمراسلة، ويعترف بأن المناقشة الشفوية مفيدة جدًّا، بل لا غنى عنها للباحث في أحد مجالات المعرفة، فلا تكفي قراءة الكتب وكراريس العلم. لذا نجد البغدادي من الذين دوّنوا مشاهداتهم للنبات في مختلف بقاع العالم، فإنتاجه العلمي متكامل من الناحتين النظرية والتجريبية.

وقد اشتهر البغدادي بمؤلفه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" الذي وصف فيه أرض مصر من حيث السكان والحيوان

hiramagazine.com

وطبيعة الأرض.

ويذكر المستشرق "ماكس مايرهوف" في "تراث الإسلام"، أن البغدادي رحل من بغداد إلى القاهرة ليرى كبار العلماء وأرض مصر، كما وصف المجاعات والزلازل التي حدثت فيها. وقدم البغدادي معلومات نفيسة عن خواص العظام بعد دراسة لها في مقبرة قديمة تقع شمال غربي القاهرة، وراجع وصحح وصْفَ جالينوس لعظم الفك الأسفل وعظم العجز.

ولم يبق من مؤلفات البغدادي إلا بعض الكتب القليلة، منها الكتاب السابق في وصف مصر، ومخطوطته في مكتبة البودليان في أكسفورد وقد ترجم إلى الألمانية عام ١٧٩٠م، وإلى الفرنسية عام ١٨١٠م، وإلى الإنجليزية عام ١٩٦٤م. وهناك كتاب "ما بعد الطبيعة" الذي ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي، وفي مكتبة حكمة تيمور نسخة منه، وفي إسطنبول نسخة أخرى، وكتاب "مقالة في الحواس والمسائل الطبيعية" في مكتبة الأسكوريال. وقد قدم الدكتور "بول غليونجي"، وسعيد عبده لها في مقالتهما في الحواس، وقدّما قائمة بمؤلفات البغدادي تصل إلى سبعة وستين كتاب ومقالة.

اتجاهه النقدي

لقد اشتهر موفق الدين عبد اللطيف البغدادي باستقلاله في الرأي، فكان لا يأخذ بما سلّم به علماء العرب والمسلمين من آراء علماء اليونان، مثل جالينوس في الطب، وديسقوريدس في علم النبات، وأرسطو في علم الحيوان وغيرهم، إلا بالاستناد إلى الملاحظة العلمية الدقيقة والبرهان العلمي الواضح. لقد نهج منهج ابن الهيثم وابن سينا في اعتمادهما على المشاهدة والاستقراء وتحري الحقيقة، حيث يقدّم لنا فكرة جيدة واضحة عن الطرق التي كانوا يتبعونها لإيجاد أدلة في الرأي يؤيدون بها ما يقرؤون من الكتب.

ولننظر إلى المقدمة المنهجية التي وضعها البغدادي في بداية شرحه على "تقدمة المعرفة"، نجده اعتبر عملية الشرح هي "وضع كتاب علمي على جهة معدلة"، يقول البغدادي في كتابه "شرح تقدمة المعرفة": "إن كل واضع كتاب علمي على جهة معدلة، فقصده تسهيله

عبد اللطيف البغدادي كان له فضل الريادة في معرفة داء السكري، إنه يحلق في التسلسل المنطقي في تعريفه ووصفه للعلامات السريرية لداء السكري اعتمادًا على الملاحظة العلمية الدقيقة رغم عدم توفر المعلومات الكيمائية والحيوية والفيزيولوجية التي نملكها الآن.

حراء

على المتعلم بثلاثة أوجه؛ الأول أن يجتنب اللفظ الوحشي والملبس والمغلط ويجتهد أن يصور المعنى في نفس المتعلم بغاية الإمكان، والثاني أن يثبت الرأي بالحجج الممكنة والأدلة الواضحة، والثالث أن يرتب الموضوع ترتيبًا يسهل حفظه ولا يصعب ضبطه".

ولم يكن البغدادي هنا يقدم صياغة نظرية فحسب، وإنما يحدد طريقًا عمليًا لما قام به بالفعل في شرحه، فنراه يحرص كل الحرص على تقديم آراء السابقين ورأي العلماء فيها، وتحليلها ونقدها وتصحيح ما بها من أغلاط. وقد تجلت هذه النزعة النقدية -حسب ما يذكر الدكتور بول غليونجي في تقديمه لمقالة "الإفادة والاعتبار"- في أعمال عبد اللطيف البغدادي بشكل بارز، فهو في معرض حديثه عن آثار مصر واعتقاد العوام المعاصرين له في ضخامة أجسام الفراعنة، ينتقد هذه الفكرة العامية برجوعه إلى المومياوات الفرعونية، ثم يقدم تعليلاً لاعتقاد العوام فيقول: "وإذا رأى اللبيب هذه الآثار (يقصد التماثيل الضخمة للفراعنة) عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وأجسامهم عظيمة، أو أنهم كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم".

أما فيما يخص الطب والتشريح، فينتقد البغدادي ما ذهب إليه جالينوس في تركيب العظام. وهو يمهد لنقده بالإشارة إلى أنه اعتمد على مشاهدة "تل من الجثث يقرب من عشرين ألف جثة"، ومدافن بوصير، يقول: "(...) ثم إني اعتبرت هذا العظم أيضًا بمدافن بوصير القديمة فوجدته على ما حكيت، ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في

hiramagazine.com

جميع أحواله إلا قطعة واحدة. وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم، ووجدته أنا عظمًا واحدًا، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظمًا واحدًا، ثم إني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس، وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط، فإني وجدته فيهما عظمًا واحدًا، وهو في الجميع موثق المفاصل، ولست واثقًا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل".

ويعلق الدكتور بول غليونجي قائلاً: "لقد استمر جالينوس في "عظمتي" الفك زمنًا طويلاً، فقد أخذ برأيه ابن سينا عند وصفه تشريح عظام الفكين، واستمر هذا الرأي سائدًا حتى بعد عبد اللطيف إلى أن أعاد نقده عملاق التشريح "فيزاليوس" (Vesalius) في القرن السادس عشر.

ونلاحظ هنا أن المشاهدة والملاحظة الدقيقة كانت هي سند البغدادي في تسجيله لحقائق التشريح، ذلك العلم الذي كان يتقدم على يد المسلمين على استحياء، نظرًا لتحرج كثير من الفقهاء من عمليات التشريح، خاصة وأن للجسم البشري كرامته الوافرة في المنظور الإسلامي.

وقد كانت الملاحظة الإكلينيكية التي تقوم على تتبع أحوال المرضي في البيمارستان أو في غيره، هي أهم أنواع الملاحظة عند الأطباء العرب والمسلمين، يقول البغدادي: "وقد ينبغي أن تجعل نظرك في جميع الأمراض الحادة على هذا الطريق، انظر أولاً إلى وجه المريض هل يشبه وجوه الأصحاء؟ وخاصة هل يشبه ما كان عليه؟ فإنه إذا كان كذلك فهو على أفضل حالاته. فأما الوجه الذي هو من المضادة لذلك الوجه، أشبه في الغاية بما كان عليه فهو أردأ الوجوه". وهذا الذي يقوله في كتابه "تقدمة المعرفة" يؤكده في كتاب "الإفادة والاعتبار".

ويظهر لنا جليًا أن البغدادي ليس فقط مشهورًا في الطب والتشريح، ولكنه من المتضلعين في علم النبات، فقد أثبت أن اطلاعه عميق في مختلف العلوم الطبيعية. يقول عبد الرزاق نوفل بأن البغدادي يتلاقى مع أكبر علماء النبات في العصر الحديث بدقة وصفه وبراعة التعبير وحسن المشاهدة، ومع علماء الزراعة في تنظيم دورات الحقل، بما يحقق أكبر إنتاج بخصوبة الأرض من جودة التوزيع والتنويع.

البغدادي وعلاج السكر

يذكر لنا "بول غليونجي" أن عبد اللطيف البغدادي كان له فضل الريادة في معرفة داء السكري وإن كان الفضل في اكتشافه يرجع إلى علماء الصين؛ وذلك في القرن الثالث الميلادي عندما لاحظوا أن حلاوة البول تجتذب الكلاب. ثم درس علماء الهند هذا الموضوع دراسة دقيقة في القرن السادس الميلادي، وسمّوا المرض "بول العسل" لحلاوة هذا السائل ولزاجته. أما علماء العرب والمسلمين فهم الذين عرّفوا أعراضه ومنهم العلامة عبد اللطيف البغدادي الذي قال: من أعراضه استرسال البول (كثرة البول)، العطش الشديد (نتيجة لكثرة البول)، ويعرض للبدن هزال وجفوف.

ويذكر "عبد الكريم شحاته" في مؤلفه عن البغدادي، أن الأقدمين كانوا يجهلون أن قصور البنكرياس في إفراز الأنسولين هو سبب السكر وإن كان البغدادي تكلم عن معالجة السكر والأدوية المختلفة التي تنفع فيه، وعن التغذية والحمية، وينصح بوجوب الخلود إلى الراحة النفسية بقدر الإمكان. هذا وإنا نرى البغدادي يحلق في التسلسل المنطقي في تعريفه ووصفه للعلامات السريرية لداء السكري (Diabetes) اعتمادًا على الملاحظة العلمية الدقيقة رغم عدم توفر المعلومات الكيمائية والحيوية والفيزيولوجية التي نملكها الآن. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، ج٢، بيروت ١٩٦٨.

(٢) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، لعبد الرحمن بدوي، الأنجلو المصرية ١٩٦٧.

(٣) أضواء على الطبيب العربي عبد اللطيف البغدادي، لعبد الكريم شحاته، بيروت ١٩٨٥.

hiramagazine.com

د. ناصر أحمد سنه*

الطيور المهاجرة

تخضع الطيور في قوة طيرانها أو ضعفه، لشكل جناحيها ومساحته، ولشدة عضلاتها الصدرية وتناسب ثقل الجسم. وإن للذيل مهمة كبرى في تغيير الاتجاه حسب رغبة الطائر ووجهته، كما يُعِين الطير على هذه العملية "الشاقة" عظام خفيفة جوفاء بالغة القوة والمرونة، واتساع محيط التنفس الذي يتيحه لها صدرُها بتركيبه العضوي العجيب، وتكوين رئتيها الإسفنجية التركيب، وشعبها الهوائية المتعددة، وأكياسها الهوائية المتصلة بها... لتساعد كلها على حسن كفاءة تبادل الغازات فضلاً عن مساهمتها في خفة وزن الطائر.

هجرة الطيور

تبقى صعوبة الطيران وصعوبة تفسيرها تفسيرًا علميًّا شافيًا، يُلقيان بظلالهما على هذه الأعجوبة من أعاجيب الطير. ولا يقاربها في الإبهار والروعة إلا أعجوبة هجرة الطيور. وبخاصة في التزامها -والتزام أفراخها فيما بعدُ- بمسارات طويلة ومحددة -ذهابًا وإيابًا- لا تضل عنها. ولفتت هذه الأعجوبة نظر الإنسان منذ قديم الزمان، فوجد على أحد الشواهد الأثرية ما يفيد وصول "الكراكي" إلى برّ مصر في ميعادها المحدد سنويًّا. وكان المصريون القدماء إذا سمعوا صوتها يبدؤون في إلقاء البذور في الأرض.

وحديثًا يحتفل العالم يومي ١٤-١٥ من مايو من كل عام، باليوم العالمي للطيور المهاجرة (أكبر المهاجرين في الكائنات الحية)، وهي مناسبة للتوعية بأهميتها، حيث إنها تُشكل خُمس أنواع الطيور المعروفة. وكذلك العمل على حمايتها ومواجهة ما يعيق بقاءها أو يعرّضها لخطر الانقراض، مع العمل على إنشاء المحميات البيئية في المواطن والموائل التي ترتادها الطيور المهاجرة (قرابة خمسين بليون طائر مُهاجر سنويًّا).

تهاجر هذه الطيور لمسافات هائلة، ثم تعود أدراجها بعد بضعة أشهر قاطعة مسافات طويلة تمتد لآلاف الكيلومترات، مقتفية أثر أجدادها في رحلة شاقة وخطيرة. وتوجد اختلافات عديدة -عامة وخاصة- في عادات الهجرة وأنماطها وطرقها ومساراتها وطريقة طيرانها وإستراتيجية هجرتها... فترحل الطيور الصغيرة التي يقل وزنها عن ١٥ جم، من جنوب أوربا إلى الصحراء الكبرى، وصولاً إلى خط الساحل الأفريقي والسودان، في رحلة تزيد على ألفي كيلومتر، تقطعها في يومين دون أكل أو شرب، وتُحلّق فيها على ارتفاعات شاهقة. أما الطيور الكبيرة، مثل الحدأة، واللقلق الأبيض، فمساراتها أكثر تحديدًا، وظروفها أصعب؛ فهي أثقل وزنًا وأكثر بطئًا، وتطير على علو منخفض، ولا تحلّق فوق البحر، وتتحرك من أوربا في مجموعات كبيرة إلى مناطق "عنق الزجاجة" أو المضائق البحرية كجبل طارق، و"باب المندب"، و"البوسفور"، لتستطيع عبورها جنوبًا.

وتم تقسيم العالم لثلاثة أنظمة هجرة رئيسة منفصلة بحدود جغرافية؛ فالأول طريق الهجرة في العالم الجديد، أما الآخر فهو الأوراسي الأفريقي، والنظام الآسيوي الشرقي، الآسيوي الجنوبي، الأسترالي. وتشكل العديد من المناطق والبحيرات والمحميات الطبيعية في دولنا العربية، معبرًا آمنًا للطيور المهاجرة والمتوطنة كذلك، كما أنها تمتلك مواقع عدة تمكّنها من الاستراحة فيها خلال هجرتها. الطيور المهاجرة تمثل "شاهد عيان" على أحوال استخدام الأراضي، واستثمار الموارد الطبيعية، ولها منافعها وأثرها في تلقيح النباتات، ونثر البذور، وحفظ التوازن الأيكولوجي وخدمة الإنسان وبيئته.

آليات الهجرة

الهجرة أمر فطري عند الطير. وبالرغم من تأثر الطير بالظروف الخارجية، إلا أنها تملك آليات داخلية، ونشاطًا هرمونيًّا تنبهها قبل أشهر إلى وقت الهجرة. فقبل موسم البرد وشُحّ الغذاء، ولأجل التكاثر ووضع الأعشاش، تهاجر الطيور لبيئات أفضل، وتبقى فيها حتى يعود النهار ليصبح أطول، ويتوافر الغذاء بشكل أكبر، ويصبح الطقس مقبولاً في موطنها فتعود له لتهاجر ثانية في العام التالي. وثمة تحضيرات قبل الهجرة، كدعم مخزون دهون الجسم لتأمين الطاقة الكافية، كما أن العديد من آكلة الحشرات تتحول إلى أكل التوت الغني بالسكر لدعم هذا المخزون. وتحتاج طيور اللقلاق، والكراكي إلى تيارات الهواء الدافئ لطيرانها.

وأوضحت دراسة أمريكية -نشرت في مجلة "بروسيدينجس بي" للجمعية الملكية البريطانية- أن طائر الليموزية صاحب المنقار الطويل (شبيه بالكروان) حطّم رقمًا قياسيًّا في الطيران؛ فقطع هذا "الرفراف الجميل" مسافة ١١٧٠٠ كلم فوق المحيط الهادي (من ألاسكا إلى نيوزيلندا) في تسعة أيام بلا توقف أو استراحة أو طعام. وكان الكروان الأوربي -يعيش على الحدود بين أوربا وآسيا- صاحب رقم قياسي سابق للطيران بلا توقف، إذ قطع مسافة ٦٥٠٠ كلم تقريبًا في ٣-٥ أيام بين أستراليا والصين. ويهاجر "خطاف البحر القطبي" (السنونو) نهاية الصيف إلى القطب الجنوبي

hiramagazine.com

قاطعًا مسافة تقدر بـ ١٨٠٠٠ كلم. وهو يمر عبر كل من إيران وسوريا وليبيا وجنوب أوربا والبحر الأبيض المتوسط على شكل أسراب مكونة من ٦٠-٨٠ طيرًا، ويذهب إلى أوربا ليفرخ هناك، كما ينتقل من جنوب أفريقيا والقطب الجنوبي. أما خرشَنة القطب الشمالي فتتكاثر أقصى شمال أوربا وأمريكا، وتهاجر في الخريف إلى أستراليا وأفريقيا، فتبقى حتى فبراير-أبريل وتعود إلى موطنها شمالاً في رحلة فريدة عجيبة، تبلغ نحو ٣٥٥٠٠ كلم ذهابًا وإيابًا في السنة الواحدة.

وتتأثر الهجرة بعوامل وراثية، فالطائر الشادي يطير من أوربا الشمالية إلى وسط أفريقيا وهو يستهلك كميات كبيرة من الطاقة، وتستغرق رحلته حوالي أربعة أيام وليالٍ طيرانًا مستمرًا. لكن كثيرًا من الطير ترتاح أثناء الطريق؛ إذ تطير مساء وتتوقف نهارًا، لأن التغذية أسهل نهارًا، كما أنها تتجنّب سباع الطير في المساء. لكن بعض الطيور الصغيرة المهاجرة نهارًا كالسنونو والعندليب، تستطيع الأكل أثناء طيرانها، فاتحة أفواهها لتلتهم الحشرات التي تحملها تيارات الهواء. لذا فالفصائل المهاجرة لمسافات قصيرة نسبيًا، تكون أقل إرهاقًا في مشاكل التغذية، وعادة ما تهاجر نهارًا. أما طيور الشواطئ فتنجز هجرتها في أي وقت من النهار أو الليل.

لقد تم كشف الكثير من آليات الهجرة عبر أجهزة الإرسال المُثبتة في أعناق أو أرجل الطيور، ورصد الإشارات اللاسلكية الصادرة عنها، وتتبع مساراتها مستقيمة أو ملتوية أو دائرية. كما أن الفحص الدقيق لساعة جسم الطائر البيولوجية أكد أنها تعمل بشكل مناسب، لكن لم يقرر نهائيًا كيف أنها تحافظ على دقة الوقت. كيف "تعرف" الطيور المهاجرة مسارها بعد انطلاقها وخلال إيابها؟ هل تعتمد الهجرة على وسائل ملاحية خارجية كمساعدة الضوء والشمس والنجوم؟ وهل تكون متأثرة بتبدلات وتنوعات المجال المغناطيسي للأرض، وتفسير الطائر للأمواج المتكررة المنخفضة وعامل الرياح؟ وهل تكون قادرة على تحديد خطوط القوة المغناطيسية مساء كي تسمح باختيار مسارات طيرانها؟

تشير الأبحاث إلى أنها قد تملك خضابًا وخلايا خاصة في أنظمتها البصرية، تسمح بإدراك الحقول المغناطيسية للأرض على شكل أنماط خطية براقة أو مظللة. وعندما تمتص العين الضوء تصبح الخضاب ضعيفة مغناطيسيًا فتسبب تبدّلاً في الإشارات العصبية التي ترسلها العين إلى الدماغ. وتقول النظريات أن بعض خلايا الدماغ تحتوي على بلوريات مادة ماغنتايت وهي أوكسيد حديدي قادر على التقاط الحقول المغناطيسية. فهل تستعمل الطيور المهاجرة إحساسها المغناطيسي البصري لالتقاط اتجاهات البوصلة؟ وتستعمل مادة الماغنتايت أيضًا لالتقاط التبدلات المحلية أو العالمية في الحقول المغناطيسية؟ وهل هذا النظام الملاحي المزدوج يفسر لماذا تتمكن بعض الطيور من الملاحة في الليالي المظلمة والغائمة؟ وهل هذا الخضاب الحساس للضوء يعمل أيضًا في ظروف الإضاءة الضعيفة؟

هناك ما يقرب من ١٠٠٠٠ نوع من الطيور تتباين في طرق معيشتها وأشكالها وأحجامها، بداية من النعامة والتي يصل وزنها إلى ١٥٠ كجم، وصولاً إلى الطائر الطنان (٢,٢ جم) الذي يستهلك في طيرانه طاقة كبيرة، لو أراد الإنسان أن يقوم بعمله لاحتاج إلى ١٣ كجم من اللحوم يوميًا، وإفراز ٤٥ لتر من الماء في الساعة ليحتفظ بحرارة جسمه تحت ١٠٠ درجة مئوية. للطيور عمومًا، والمهاجرة خصوصًا، أهمية كبرى في منظومة التنوع البيولوجي لكوكبنا ولحياتنا، منظومة تؤثر فينا ونؤثر فيها إيجابًا أو سلبًا.

إذن، المتأمل في الكون يجد كمًّا هائلاً من الكائنات الحية. والمَشاهد والمظاهر تدل ليس فقط على نعمة الإيجاد من عدم (الخلق) لما يزيد عن مليون نوع من الكائنات الحية ومنها الطير، متنوعة الصفات والخصائص والوظائف والتراكيب والأشكال والألوان، بل أيضًا على هداية، وإرشاد، وتسخير، ورزق، وتعليم الله تعالى لها كي تؤدي دورها ووظيفتها، وتنال رزقها وتتواصل فيما بينها على الوجه الأنسب والأفضل دومًا. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiramagazine.com

د. يحيى جاد*

مواقع التواصل الاجتماعي والواقع

مواقـع الإنترنت بمختلف أشكالها هي إحدى أدوات -وليس كل أدوات- الحوار، والتواصل، وتبادل الخبرات، والمعلومات، والرؤى، وصناعة المستقبل... ومن ثم فهي لا تنقل لنا الصورة كاملة، وإنما تضع بين أيدينا جزءًا منها. وهي لا تُمثّل الواقع كاملاً، وإنما هي جزء منه تؤثر فيه وتتأثر به، ومن ثم تُغيّر وتتغير.

وصورتنا عن الواقع إنما تتكون عبر عناصر هي الذات، والأغيار (أو الآخر بالتعبير الحديث)، والأفكار، والأفعال، والتفاعل بين المكونات السابقة.

ومن ثم يجب التفريق بين رصد الأفعال وتفسيرنا لهذه الأفعال، بين المعلومات والعلم والمعرفة، بين الحقائق (أي الوقائع) والحقيقة (أي تفسيرنا لهذه الحقائق)، بين الوقائع والواقع.

ورَفْع الواقع (أي رصده) يجب أن يكون بدقة وأمانة وتتبع كاملين قدرَ الطاقة. بينما فهم الواقع (أي تفسيره وفقهه) يخضع للرؤية الكلية الحاكمة للذات، وللخلفية المعرفية لها، ولمدى ذكاء وسعة أفق المرء في التحليل والتفكيك والتركيب لتفاصيل الواقع السابق رَفْعُه.

وكل قراءة فهم، تفسير للواقع يستلزم بالضرورة تنحية بعض الوقائع المرصودة (أي تصنيف بعضها على أنها هامشية غير أساسية)، حتى يُتاح للمرء اكتشاف

الكامن في المجموع، لئلا يذهب نظرُنا شعاعًا (أي متفرقًا) ونغرق في بحر التفاصيل، ونسقط في جُبّ المعلومات فيبتلعنا حوتها أو ذئبها إن شئتَ قلتَ.

ومن ثم فإن كل تفسير للواقع هو اجتهادي بالضرورة (بغض النظر عن مدى صوابه أو خطئه)، بينما كل رصد للوقائع هو ظن راجح على أقل تقدير (أو هكذا يجب أن يكون إذا توافرت الأمانة في الرصد، والتتبع والاستقراء). وبناء عليه فكل قراءة فهم، تفسير للواقع هو -مِن أيّ الناس صدر- متحيز بالضرورة.

وبهذا البيان تتم تصفية الإشكالية الوهمية حول الذاتية والموضوعية، فليس هناك -في ظني- جدار أسمنتي عازل بينهما، وإنما هناك تفاعل حلزوني بينهما.

ونعود إلى الحديث عن مواقع الإنترنت وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي فنقول:

من مميزاتها:

١- إلغاء حاجز الزمان ومن ثم سرعة التأثير.

٢- إلغاء حاجز المكان ومن ثم سعة الانتشار.

٣- إلغاء إمكانية التعتيم على الوقائع ومن ثم تحقيق المصداقية والشفافية وتفعيل مبدأ الحق في الاطلاع (أي حرية تداول المعلومات).

٤- إلغاء إمكانية تكميم الأفواه ومن ثم تحقيق مناخ الحرية (خاصة حرية التعبير) وتفعيل آلية الشورى (بوجه من الوجوه).

٥- التشجيع على إبداء الرأي دون خوف عقاب أو تسلط، وهذا من أكبر المحفزات على الإبداع والاجتهاد والتجديد (بمعانيها الواسعة الشاملة).

٦- تفعيل آلية الضبط الاجتماعي، فأي انحراف في الرأي أو خلل في الرؤية أو تقصير في الفعل يُنشر على هذه الصفحات الإلكترونية، سيجد مَن يقوّمه ويرشِّده بشرط ألا يكون صاحب هذه الصفحة الإلكترونية من الذين سقطوا في جُب الذاتية الجوانية.

ومن عيوبها:

١- الرصد المبتور، الجزيئي، الفسيفسائي للأحداث والوقائع، والخلل في رصد الوقائع يفضي إلى الخلل في فهم الواقع.

٢- والرصد، الرفع المنحرف للوقائع عبر نشر الشائعات والأكاذيب والمعلومات المغلوطة أو غير الكاملة، وهذا مناخ ممتاز للتعكير والتكدير والتفريق والتمزيق.

٣- وطغيان تأثير الصورة على الإدراك والتفسير والتحليل والتفكيك والتركيب، مما يفضي إلى السطحية والتبسيط والسقوط في جُب الواحدية السببية -وهي نوع من الشِّرك التحليلي- وجُب الموضوعية الوهمية -وهي في حقيقتها سلبية متلقية- في حين أن الواقع تصور مركب ومعقد غاية التركيب والتعقيد.

٤- السقوط في جُب الذاتية الجوانية، أو بتعبير آخر جُب مدرسة الرأي الواحد والاتجاه الواحد. فكثير من مستخدمي هذه المواقع يحرص على ألا تضم قائمة المتواصلين معه (أو لا يحرص على ضم) أيَّ آخر جنسي (ذكورة أو أنوثة، مصري أو خليجي أو مغربي أو أندونيسي)، أو ثقافي (حضري أو ريفي أو بدوي، قاهري أو صعيدي أو نوبي)، أو فكري فلسفي (إسلامي أو علماني)، أو سياسي (مستقل أو حزبي)... ولهذا أثر غير منكور في انتشار حوار الطرشان أحيانًا، أو التنميط والقولبة أحيانًا أخرى. فالمرء ههنا -باستبعاده لأي آخر- إنما يخاطِب ذاته، وكأنما ينظر إلى نفسه في المرآة، مع أنه يدّعي محاولة التأثير والتغيير والإصلاح من خلال هذه الصفحات الإلكترونية، أو مع أنه يدّعي محاولة الرصد الأمين للوقائع، والتفسير الدقيق للواقع من خلال هذه الصفحات الإلكترونية، أو مع أنه يدّعي محاولة تزكية نفسه وفكره ورأيه ورؤيته من خلال هذه الصفحات... وكل هذه الأمور الثلاثة -مجتمعة أو منفردة- لا يمكن تحقيقها تحقيقًا رشيدًا وفاعلاً من خلال جُب مدرسة الرأي الواحد.

٥- التماهي الإلكتروني بالانسحاب التدريجي الخفي من الزمان والمكان من خلال الاكتفاء به عن المشاركة الفاعلة في الحياة متخيلاً تحقيق ذاته بذلك، فيصبح الإنسان -ذلك الكائن المركب الرباني- مجرد صفحة في موقع. ■

(*) طبيب وباحث مصري.

hiramagazine.com

السراج المنير

تعجب الخلق من دمعي ومن ألمي ... وما دروا أن حبّي صغتُه بدمي
أضناني الشوق ما ليلى بفاتنتي ... ولا سعاد ولا الجيران في إضم
لكن قلبي بنار الشوق مضطرم ... أفّ لقلب جمود غير مضطرم
منحت حُبِّيَ خير الناس قاطبة ... برغم من أنفه لا زال في الرغم
يكفيك عن كل مدْح مدَح خالقه ... واقرأ بربك مبدأ سورة القلم
شهْم تشيد به الدنيا برمتها ... على المنائر من عُرْب ومن عجم
أحيا بك الله أرواحًا قد اندثرت ... في تربة الوهم بين الكأس والصنم
نفضت عنها غبار الذل فاتقدت ... وأبدعت وروت ما قلت للأمم
ربيتَ جيلاً أبيًّا مؤمنًا يقظًا ... حسا شريعتك الغراء في نهم
محابر وسجلات وأندية ... وأحرف وقواف كنَّ في صمم
فمن أبو بكر قبل الوحي؟ من عمر؟ ... ومن علي؟ ومن عثمان ذو الرحم؟
من خالد؟ من صلاح الدين قبلك؟ من؟ ... من مالك؟ ومن النعمان في القمم؟
من البخاري؟ ومن أهل الصحاح؟ ومن ... سفيان؟ والشافعي الشهم ذو الحكم
من ابن حنبل فينا وابن تيمية؟ ... بل الملايين أهل الفضل والشمم
من نهرك العذب يا خير الورى اغترفوا ... أنت الإمام لأهل الفضل كلهم
ينام كسرى على الديباج ممتلئًا ... كبْرًا وطُوِّقَ بالقينات والخدم
لا همّ يحمله لا دين يحكمه ... على كؤوس الخنا في ليل منسجم
أما العروبة أشلاء ممزقة ... من التسلط والأهواء والغشم
فجئتَ يا منقذ الإنسان من خطر ... كالبدر نورًا يجلي حالك الظلم
أقبلتَ بالحق يجتث الضلال فلا ... يلقى عدوك إلا علقم الندم
أنت الشجاع إذا الأبطال ذاهلة ... والهندواني في الأعناق واللمم

فكنت أثبتهم قلبًا وأوضحهم ... دربًا وأبعدهم عن ريبة التهم
بيت من الطين بالقرآن تعمره ... تبًّا لقصر منيف بات في نغم
طعامك التمر والخبز الشعير وما ... عيناك تعدو إلى اللذات والنعم
تبيت والجوع يلقى فيك بغيته ... إن بات غيرك عبد الشحم والتخم
لما آتتك "قُم اللّيلَ" استجبت لها ... العين تغفو وأما القلب لم ينم
تمسي تناجي الذي أولاك نعمته ... حتى تغلغلت الأورام في القدم
أزيز صدرك في جوف الظلام سرى ... ودمع عينيك مثل الهاطل العمم
الليل تسهره بالوحي تعمره ... وشيبتك بهود آية "استقم"
تسير وفق مراد الله في ثقة ... ترعاك عين إله حافظ حكم
فوّضتَ أمرك للديان مصطبرًا ... بصدق نفس وعزم غير منثلم
ولّى أبوك عن الدنيا ولم تره ... وأنت مرتهن لا زلت في الرحم
وماتت الأم لما أن أنست بها ... ولم تكن حين ولّت بالغ الحلم
ومات جدك من بعد الولوع به ... فكنت من بعدهم في ذروة اليتم
فجاء عمك حصنًا تستكن به ... فاختاره الموت والأعداء في الأجم
ترمى وتؤذى بأصناف العذاب فما ... رئيت في ثوب جبار ومنتقم
حتى على كتفيك الطاهرين رموا ... سلا الجزور بكف المشرك القزم
أما خديجة من أعطتك مهجتها ... وألبستك رداء العطف والكرم
غدتْ إلى جنة الباري ورحمته ... فأسلمتك لجرح غير ملتئم
والقلب أفعم من حب لعائشة ... ما أعظم الخطب فالعرض الشريف رمي
وشُجّ وجهك ثم الجيش في أُحد ... يعود ما بين مقتول ومنهزم
لما رزقت بإبراهيم وامتلأت ... به حياتك بات الأمر كالعدم
ورغم تلك الرزايا والخطوب وما ... رأيت من لوعة كبرى ومن ألم
ما كنت تحمل إلا قلب محتسب ... في عزم متقد في وجه مبتسم
بنيت بالصبر مجدًا لا يماثله ... مجد وغيرك عن نهج الرشاد عمي

(*) عالم ومفكر سعودي، ومؤسس مشروع السلام عليك أيها النبي.

د. حسن عبد الله حمد النيل*

الخَواء الفكري وخطورته على الشباب

تُعدّ حالة الخواء الفكري الذي يعيشه قطاع كبير من الشباب اليوم، ظاهرة خطيرة جدًّا، وذلك لأن الخواء الفكري قاتل. وها هنا تكمن الخطورة إن لم تكن البُنى التحتية العلمية، والمنهجية الإسلامية عند الشباب قوية تمامًا، مستمدة أصلها من القرآن الكريم والسنة النبوية. ويكون التحصين الذاتي للشباب والتربية الأُسرية السليمة والرقابة المجتمعية، هي صمام الأمان ضد الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي تكون نتاجًا لذلك.

الخَواء الفكري هو خلو العقل والفكر مما ينفع ويفيد، وليس شرطًا أن يكون الخَواء فكريًّا ممتلئًا بما لا يفيد، ولكنه خال مما يفيد، مما يجعل صاحبه مؤهلاً للتأثر بأي فكر وأي منهج بغض النظر عن محتواه العلمي ودرجة صحته وموافقته للشريعة، لأن امتلاء العقل والفكر بالعلم والمعرفة يكون رصيدًا قويًّا ضد الانحراف، ومانعًا صلبًا من الضلال.

وبالجملة يمكن القول بأن الظروف التي يعيشها كثير من الشباب؛ مثل عدم وجود مشاغل لأسباب الفشل في الدراسة وعدم إتمامها بسبب الظروف الاقتصادية، أو عدم وجود فرص عمل أمام الشباب، هذان عاملان تسببا في إحداث خَواء كبير في حياة الشباب، إن لم يحسن استخدامه ومَلْأه بالبرامج النافعة والمشاريع المفيدة -وهذا في الغالب ما لا يحدث- فإن هذا الخواء بدوره يقود لخواء فكري خطير جدًّا، له خطورته على حياة الشباب وانعكاساته على نمط تربيتهم. يواجه الشباب اليوم خواءً فكريًّا كبيرًا تسببت فيه وأوجدته عدة عوامل تفترق أو تجتمع في الحالة الواحدة، وتتنوع أسبابه ما بين عوامل خاصة وعامة. ويمكن تقسيم هذه الأسباب إلى الآتي:

١- أسباب عامة

ويمكن الإشارة إلى الأسباب العامة بأمرين:

أ- انتشار الجهل وانصراف الناس عن العلم. وفي هذه الحالة يسود المجتمع خليط من الأفكار الفاسدة، والخرافات والتصورات والعادات الجاهلية، ويصبح المجتمع مهيئًا لكل فكر ضال. كما أنه في بعض

الأحيان يكون قابلاً لدعوات الإصلاح إذا لم تكن فيه بدع مستحكمة، ومفاهيم منحرفة مقدسة.

قال الدكتور عبد الحليم عويس: "ولئن كانت عوامل التجزؤ عديدة ورهيبة، فإن هذه العوامل لا تتسلل إلى الأمة إلا حيث تعاني من فراغ فكري، وفقر إلى مجموعة القيم التي تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة، إذ إن من شأن أي جماعة تعاني مثل هذا الفراغ، أن تغدو هدفًا لمطامع أُولي الدعوات الهدامة التي تصطنع المبادئ والقيم لبلوغ أمانيها وأغراضها"[1].

ب- الفوضى الفكرية، حيث تنتشر المعارف وتقوى حركة التعليم مع اختلاف مشارب الأفراد الفكرية، فيجهر المبطلون بالضلال ويتفننون في عرضه على الناس. وعندها يتوزع أبناء المجتمع الواحد إلى طوائف، كل طائفة تسير خلف فكرة ومبدأ، ويزخرف كل فريق مبدأه، إما بتقريبه إلى الإسلام بالاستدلال الفاسد، أو بتقديمه على أنه الجديد المفيد المتجاوب مع مستجدات العصر، مع دعوى أنه لا يتعارض مع أصول الإسلام.

٢- أسباب نفسية أو ذاتية

وهي أسباب توجد في نفوس الشباب أصلاً، ويضعونها بين أيديهم بلا تدخل من أي مؤثر خارجي، وهي بدورها تتسبب في خوائهم الفكري، مثل عدم وجود ثوابت فكرية عند كثير من الشباب، ولا فهم واضح للحياة ومشاكلها وتفاعلاتها المختلفة، مما يجعلهم غير قادرين على تحديد احتياجاتهم الفكرية ومن ثم السعي لتلبيتها.

عدم وجود الرؤية الواضحة عند الشباب للمستقبل، وعدم وجود أهداف لتحقيقها، مما يجعله يدخل في دوامة حيرة فكرية، وتدور في رأسه مسائل وإشكالات عديدة مثل؛ ماذا أقرأ؟ ومَن أصاحب؟ ومَن أتابع؟.. ويضاف لهذا من المشكلات، التخصص الأكاديمي الضيق الذي يجعل الشباب لا ينظر إلا تحت قدميه، غاضًّا الطرف عن استشراف المستقبل والتطلع نحو بناء الذات وتطويرها. فكثير من الشباب حدّ علمهم ومنتهاه، قاعة الدراسة والمراجع الأكاديمية المتخصصة، مما يتسبب

الخَـواء الفكري هو خلو العقـل والفكر مما ينفع ويفيد، وليس شرطًا أن يكـون الخَواء فكريًّا ممتلئًا بما لا يفيد، ولكنه خال مما يفيد، مما يجعل صاحبه مؤهـلاً للتأثر بأي فكر وأي منهـج بغض النظر عن محتواه العلمي ودرجة صحته وموافقته للشريعة.

في ضعف الأفق العلمي وسطحية المنهج الفكري.

٣- أسباب أُسرية

تتسبب كثير من الأُسر المعاصرة في صناعة خَواء فكري كبير لدى أولادها من البنين والبنات، خاصة إن لم تحسن التربية والرعاية لهم، وحفظهم وتثبيتهم على أسس علمية وإسلامية وصحية في الوقت الذي كثرت فيه الاختلافات الفكرية والاضطرابات المنهجية، فضعف التربية الأُسرية وعدم قيام الأُسرة بدورها في تحصين أولادها علميًّا، وسد نهمهم الفكري يحدث خواءً كبيرًا عندهم، مما يجعلهم يسعون فرديًّا لسد هذا النقص الفكري والعوز المعرفي، وهنا تكمن خطورة عدم القدرة على تميز غث الأفكار والمناهج من سمينها.

كما يتسبب انتشار الجهل والأمية داخل الأُسرة في هذا الخواء الفكري عند الأولاد، وفاقد الشيء لا يعطيه، وهذا إضافة إلى ما تحدثه الظروف المعيشية عالية الرفاهية إذا تضافرت مع ذلك الجهل وتلك الأمية.

٤- أسباب اجتماعية

المعني بالأسباب الاجتماعية هو دور المؤسسات العلمية والأكاديمية التي تقوم على الرعاية والتوجيه في المجتمع. فعدم قيام هذه المؤسسات بدورها تجاه الشباب، يخلق عندهم خواءً فكريًّا يكون السعي لسده فرديًّا، وذلك عندما لا تحتوي مناهج هذه المؤسسات على مناهج تلبي احتياجات الشباب حسب أعمارهم وجنسهم.

كما يتسبب ضعف المنهج كثيرًا في تخريج "أنصاف متعلمين"، مما يجعل تأثرهم سهلاً بأي فكر وأي منهج.

هناك مظاهر ودلالات كثيرة تدل على الخواء الفكري الذي يعانيه قطاع لا يستهان به من شباب الأمة، قد تكون هذه المظاهر سلوكية تظهر في سلوكهم،

أو فكرية تتضح في فكرهم، أو حتى عملية تظهر في ممارسة الحياة العملية.

ولنا أن نتساءل، ما هي دلائل أنّ هذا الشاب خاويًا فكريًّا؟ وكيف يمكن الحكم على منهجٍ ما بأنه خواءٌ فكري؟ في الواقع إن هنالك عدة مشيرات؛ فالشاب الخاوي فكريًّا يتّسم بالسطحية في المناقشة وعرض الأفكار، كما يظهر خواء الفكر في عدم الموضوعية في تناول المواضيع الجادة ذات الشأن، كما أنه تغيب عنده الرؤية العلمية والمنهجية في الحياة. أيضًا من سمات أصحاب الخواء الفكري، أنهم يقرؤون ويطلعون ويتصفحون كل ما يقع في أيديهم من كتب ومؤلفات مختلفة الرؤى والأفكار، دون القدرة على تمييز النافع من الضار والغث من السمين.

من المظاهر الخطيرة جدًّا كذلك، كثرة الانتقال من مذهب فكري إلى آخر دون إعمال عقل أو تدوير فكر أو تمحيص رأي بسبب عدم تحديد احتياجات الشاب المقنعة. من مظاهره أيضًا، الشعور بالملل والاكتئاب المستمر. كذلك من المظاهر السالبة أيضًا، الإسهاب في عرض قضية ما، وذلك بالتركيز على الجزئيات الضيقة دون النظر إلى كليات القضايا والأمور.

فالخاوي فكريًّا، سريع التأثر بأي فكر يكون قويًّا في عرضه وجذابًا في مظهره ولو كان فكرًا ضالاًّ، والمواقع على الإنترنت تحمل آلاف الآراء والأفكار الضالة. كما قد يتسبب الخواء الفكري في التزام الشاب بمنهج يناقض سلوكه وأخلاقه ومثله العليا، بل تطلعاته الهادفة النبيلة، وهو لا يشعر بذلك حتى يتمكن منه الداء العضال، ويصعب عليه الانفكاك عن المنهج الذي تعوده.

كما ويصاب الخاوي فكريًّا بعدم وجود مرجعية علمية يمكن الرجوع إليها إذا ما واجهته مسألة علمية أو أزمة فكرية. فهو خاوي الفكر مما يفيد ومن معرفة من يفيد، لأنه لو تمت له مدارسة مع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة، لحصل له من العلم ما يملأ خواءه الفكري، ومن ثم يكون التخبط والاضطراب نتاجًا طبيعيًّا لهذه الحالة، ومن ثم قد يستعين بمن يظنّهم أهل العلم -وليسوا بأهله- وربما يكونون من أصحاب الأهواء الشخصية أو الضلالات المنهجية، فيزيدوا مشكلته تعقيدًا، وتزيد خطورة هذه الظاهرة في الوقت الذي أصبح فيه كل طالب علم مبتدئ قادرًا على إنشاء موقع فيستفتي ويجيب وهو جاهل بدين الله وأحكامه الشرعية، فضلاً أن يرقى إلى مستوى حل مشاكل الشباب وفك معضلاتهم العلمية. ومن العجيب أن بعض الشباب يجعل أدلته في مسائل خلافية مواقع يزورها على الإنترنت دون التثبت من صحتها.

مما ينبغي التنبيه عليه أيضًا هو أن الخواء الفكري، يسبب ملل وقلق دائمين بسبب توفر الوقت وخواء العقل، فصاحبه يحتاج لأمر يقضي فيه وقته ويضيعه. وأجهزة التقانة الحديثة فيها قدر كبير من اللهو والمرح المباح وغير المباح، كما تحتوي وسائطها على مغريات كثيرة، ومن ثم في حالة عدم وجود الوازع الديني والتربية والرقابة من الأُسرة، فإن ذلك يؤدي إلى اختلالات سلوكية خطيرة.

تكون الوقاية من الظواهر المجتمعية السالبة، في تعطيل الأسباب المنشئة والمغذية لها. ومن خلال تحليلنا لهذه الظاهرة، وجدناها تتفرع من أسباب ذاتية وأخرى أسرية، وعوامل اجتماعية كما سبق البيان، ومن ثم تكون الوقاية منها والمعالجات لها، من خلال ذات المحاور التي تلج منها هذه الظاهرة السالبة.

ففي الجانب الأُسري تكون المعالجة على يد الوالدين بحفز الأولاد ودفعهم للهمم العالية، كما ينبغي ربطهم في المستقبل، وأن يكون لهم أهداف سامية يسعون لتحقيقها والوصول إليها. كما ينبغي تحصين الشباب وتثبيتهم على قواعد ومنطلقات فكرية سليمة، وهذا ما يسمى بـ"قاعدة التحصين الذاتي"، والتي أشار حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: "يا غلام إني أعلّمك كلمات، احفظ اللهَ يحفظْك، احفظ اللهَ تَجدْه تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلمْ أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلامُ وجَفَّت الصحفُ" (رواه الترمذي). هذا دليل واضح على اهتمام الرسول ﷺ بالشباب وكيفية المحافظة على

hiramagazine.com

عقائدهم وأفكارهم، وذلك بالتوجيه المباشر لهم ليس تركهم لعواصف الفتن والأهواء أن تعصف بهم.

جانب آخر من وسائل العلاج والوقاية، هو المحور الأُسري ودوره المتعاظم في الوقاية من الظواهر السالبة. فكما هو معلوم فإن البيت هو عمدة المجتمع وركيزته الرئيسة التي يرتكز عليها، وها هنا يكون التلازم في علاج الظواهر السالبة في ابتداء معالجة التفلتات الأُسرية والانحرافات داخلها، مما يشكل في مجموعه أمن وسلامة المجتمع وبناء مجتمع سليم ومعافى.

ويأتي أخيرًا دور المحور المجتمعي، وهو دور مؤسسات الدولة التعليمية والإعلامية والمؤسسات الأكاديمية الأخرى، في تصحيح المنهج الفكري عند الشباب والمحافظة عليه، وإبعادهم عن كل آفات الفكر.

الخلاصة

ساهمت مؤسسة المجتمع في هذه الظاهرة؛ إذ قلّت المنتديات العلمية والفكرية النافعة، واكتفت المؤسسات الأكاديمية بتخريج "أنصاف المتعلمين" وأصحاب النظر الضيق والأفق المحدود، لا يرون المستقبل ولا يستشرفونه، مكتفين بالنظر تحت أقدمهم.

ولقد تنامى الدور المجتمعي أهميته في التربية السلوكية للأفراد في العصر الحديث بعد تراجع كبير لدور الأُسرة، وانشغال كثير من الآباء عن أولادهم، مما أحدث فجوة تربوية كبيرة. كما انشغلت المؤسسات الأكاديمية وانحصرت في البرامج الدراسية المتخصصة في وقت تنامت فيه وازدهرت وسائل الاتصال مع المجتمعات الخارجية بسهولة ويسر، ودخلت هذه الوسائط المرئية والمسموعة كمُربٍّ؛ له أثره في الشباب وتوجيه أفكارهم وصياغتها، وله أثره الظاهر في أخلاقهم. ومن ثم لابد من مواجهة ذلك المد التقني الجارف بدور مجتمعي قوي وفاعل في توجيه الشباب والرقابة عليهم. ويقول الباحث التربوي محمد نبيل موضحًا أهمية دور المجتمع: "على قدر تعدد الأوساط التربوية وكثرتها وترابطها يظهر تميز مؤسسة المجتمع في كبر مساحتها وسعة دائرتها وأهمية موقعها في حياة كل فرد ومستقبله"[٢].

كما يتضح ذلك أيضًا عندما "يغادر الفرد بيئته أو مدرسته أو مسجده، ويلتحق بالمجتمع وينخرط فيه، ويتفاعل مع جميع أطيافه، متدثرًا بعوامل مناعية وسلوكية اكتسبها من خلال أسرته وأصدقائه ومسجده ومدرسته. ومن خلال تلك الاكتسابات السلوكية واستشعاره بدوره لتأكيد ذاته وأهميتها، يشعر بأنه من خلال تكوينه التربوي، عضو في مجتمعه، فيحافظ ذلك العضو الجديد ويطور مكاسبه الأخلاقية والتربوية والمعرفية"[٣]؛ فيقعون صيدًا سهلاً لأصحاب المآرب الشخصية والعداوة للإسلام. كذلك كان لابد من وقفة وقاية من هذه الظاهرة ومثيلاتها، ولابد من سبيل ناجح للعلاج مما أصاب الشباب من تراوح بين الخواء الفكري والاستخدام السيئ للتقنيات. وأول خطوات الوقاية والعلاج هي الأُسرة، إذ إنها أول لبنة في المجتمع، فلابد أن تقوم بدورها المنوط بها نحو أبنائها والمنسوبين إليها، تحصينًا ومراقبة ومحاسبةً على الأخطاء المرتكبة داخل الأُسرة وخارجها.

كما ينبغي أن تقوم مؤسسات المجتمع بدورها الموكل إليها في سد ذرائع الفساد والفتنة الموجهة للشباب الذين هم رجال المستقبل وصُنَّاعه، حتى لا يصاب غدًا المجتمع بالشلل الحركي فتتعطل قوته وتقل فاعليتها، ويصبح المجتمع عالة على ما حوله من المجتمعات، مكتفيًا بالاستهلاك منها لبضائعه القيمية والفكرية، كما ينبغي أن تراجع مؤسسات التعليم مناهجها لتخريج شباب ذوي رسالة ينفعون بعلمهم وينتفعون به. وعلى الشباب ألا يضيعوا جهدهم وأوقاتهم فيما يعود عليهم بالوبال والحسرة، وأن يكونوا بعيدي النظر غير منجرفين وراء الشهوات والفتن التي تحد من تقدمهم ورقيهم الإنساني. ■

(*) جامعة السودان / السودان.

الهوامش

(١) ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص:١٨٨.

(٢) المنهج الإسلامي دراسة المجتمع، نبيل محمد توفيق، دار الشروق، جدة، ط ح ١٤٠٢هـ، ص:٢٥٠.

(٣) دور القضاء السعودي للإصلاح التربوي، المملكة العربية السعودية، صبحي بني يحي الحارثي، ط ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص:٣٠٩-٣١٠.

hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201065523089 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير أشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201098325549+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Turkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩

الوحي والإنسان

نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين لله ﷻ أمر لا يمكن البتة بدون الوحي.. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعةً لا ينصلح بدون الوحي..

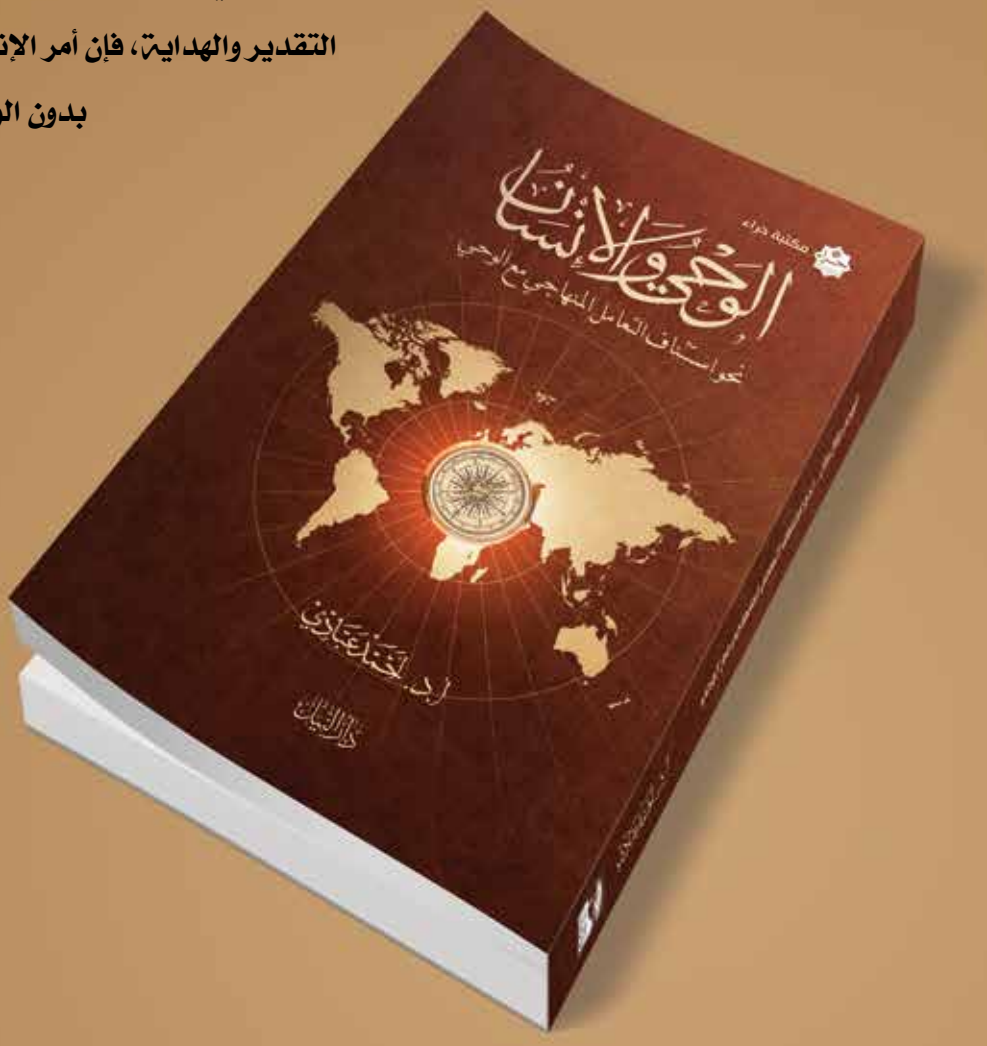

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
www.daralnile.com
دار النيل

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

وردة الروح

نبتغيها، نحبِّها، نعشقها في كل وقت وآن..

وَرْدتُنا الحمراء العبقة..

بها الدنيا أَزهرتْ، وعن قفرها تخلَّتْ..

لا أبدًا ما اصفرَّتْ، ولا أمام الخريف هُزمَتْ..

عَمى الألوان في عين الملحد.. يرى النورَ ظلامًا،

والحمرةَ الساطعةَ صفرةً فاقعةً..

* * *

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Eylül - Ekim 2014 Sayı: 44 Fiyatı: 7,5 TL.